رحاب الإمام الحسن عليه السلام

الشيخ فوزي آل سيف

الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة
والسلام على محمدٍ وآله الطاهرين

بين يدي القارئ والقارئة

قبل أحد عشر عاما صدر كتاب (رجـال حـول أهـل البيـت)، وبعده بثمانية أعوام صدر كتاب (نساء حول أهل البيـت)، وعنـدما أريد إعادة طباعة الكتابين رأى بعض الإخوة تجزئـة هـذين الكتـابين بحيث يصدر كتيب حول كل معصوم، وأصـحابه (رجـالا ونـساء)، فكان هذا الذي بين يديك، وهو يحقق عدة أمور، منها سهولة تداول كل قسم من أقسامه، بخلاف ما إذا كان أربعة مجلدات كبيرة، ومنـها أن الفئة المخاطبة به هي الفئـة الـشابة وهـم يقبلـون علـى الكتـاب الصغير حجما، أكثر من إقبالهم على كبير الحجم، ومنـها أنـه مـن خلال هذا الجمع سيتم الإحاطة بحياة المعصوم من جهات متعـددة.. لكل هذه الأمور، تم تنسيق الكتابين بهذا النحو.

وها هي بين يديك إضمامة عطر من بستان أمير المـؤمنين علـي بن أبي طالب وأبنائه الطاهرين عليهم السلام تحتـوي علـى حيـاة خمـسة مـن الرجال الرساليين، وخمس من المؤمنات القانتات.

موجز عن حياة الإمام

الحسن بن علي عليه السلام

(المجتبى) أبو محمد ٣ ـ ٥٠ هـ

ولد سنة ٣ للهجرة، فكان أول ثمرة في البيت العلوي.

نشأ في حجر جده رسول الله صلى الله عليه وآله، حيث كان النبي يعطيه اهتماماً استثنائياً، ويشير إلى محبته إياه، وأنه ـ وأخاه الحسين ـ أئمة هذا الخلق بعد أبيهم.

بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، شهد الإمام الحسن عليه السلام ما جرى من اغتصاب الخلافة من أبيه، وكان أول موقف له، وهو آنئذٍ في حدود التاسعة من العمر، أن جاء إلى المسجد ولما رأى أبا بكر عليه قال له: انزل عن منبر أبي واذهب إلى منبر أبيك.

بالرغم من وعيه لكيفية صرف الخلافة عن أبيه إلا أنه لما كان هدفه الإسلام فقد اشترك في الفتوحات الإسلامية سنة ٢٦ هـ في إفريقية كما شارك في فتح طبرستان، مع شيعة والده ـ كما نُقل ـ.

شارك أباه في مواقفه المختلفة بعد أن جاءته الخلافة، فقد شارك في حرب الجمل وأرسله أمير المؤمنين قبل بداية الحرب إلى الكوفة لاستنهاض أهلها لنصرة الإمام في حربه وكان على الكوفة أبو موسى الأشعري الذي كان يخذل الناس عن أمير المؤمنين، فعزله الإمام الحسن عليه السلام قائلاً له: اعتزل عملنا لا أم لك وتنح عن منبرنا. كما شارك أباه في صفين.

بعد شهادة أمير المؤمنين عليه السلام تصدى لشؤون الإمامة، وحيث

أن أمير المؤمنين قبل شهادته كان يعد للقتال مع معاوية مرة أخرى، فقد واصل الإمام الحسن عليه السلام برنامج أبيه في تحشيد القوات. إلا أن المجتمع الكوفي آنئذ، والذي لم يستجب لأمير المؤمنين، لم يستجب الاستجابة الكافية للإمام الحسن عليه السلام مع ذلك واصل الإمام الحسن خطته في المواجهة العسكرية، بذلك الجيش الضعيف (معنوياً).

استطاع معاوية أن يرشي بعض قيادات الجيش الكوفي وأن يستقطبهم إلى جانبه بالأموال. وأن يسمم الأجواء في هذا الجيش، وأضيف إليه رغبة الكثير في هذا الجيش عن الحرب، وحبهم للبقاء حتى لقد كان في هذا الجيش من كان مستعداً لاغتيال الإمام لو حصلت له الفرصة. فكان أن اضطر الإمام الحسن للصلح العسكري مع معاوية ضمن شروط ذكرها المؤرخون وكان منها: أن يكون شيعة أمير المؤمنين وأصحابه في أمن على حياتهم وأموالهم، وأن تكون الخلافة بعد معاوية للحسن، وأن يتم الامتناع عن شتم الإمام.. إلى غير ذلك.

استطاع الإمام الحسن أن يكشف من خلال الصلح وما تلاه حقيقة معاوية ابن أبي سفيان أمام جميع المسلمين من أنه ليس ذا دين ولا عهد. وتعرض الإمام الحسن عليه السلام لحملة تشويه استهدفت النيل من شخصيته بين الناس، وقاد تلك الحملة مرتزقة الأمويين من الكتاب والمؤرخين، كالقول إن الإمام الحسن كان عثماني الهوى وأنه خالف أباه في كثير من خطواته، أو أنه كان كثير الزوجات، أو أنه (تنازل) عن الحكم لصالح معاوية ومع أن هذه الأقوال تخالفها حقائق التاريخ، والدراسة العلمية، إلا أنها وجدت لها من يلوكها من الكتاب، حتى من بعض ا لمتأخرين.

عرف الإمام الحسن عليه السلام بمساعدته المحتاجين، وإنفاقه عليهم، حتى أصبح لقب (كريم أهل البيت) خاصاً به.

استشهد الإمام الحسن مسموماً بتخطيط من معاوية سنة ٥٠ هـ ودفن في المدينة.

رجال حول الإمام الحسن عليه السلام

عبد الله بن جعفر (الطيار)

توفي سنة ٨٥ هـ

«اللهم اخلف جعفراً في أهله وبارك لعبد الله في صفقته..»

الرسول ﷺ

كان يعيش في عالم بهيج من المتعة، بينما كانت يداه الصغيرتان تغوص في الطين، مشكلة إياه في صورة بيوت ولعب وغيرها، وكأنه كان يفضل العالم الذي يريده.. عندما مر عليه رسول الله ﷺ، فعطف عليه قائلاً: ما تصنع بهذا؟.

قال عبد الله بن جعفر: أبيعه.. فما تصنع بثمنه؟ سأله الرسول مرة أخرى.

فأجاب: أشتري رطباً فآكله.

فقال النبي!: اللهم بارك له في صفقة يمينه..

فكان عبد الله يجد أثر هذه الدعوة إلى آخر عمره، فما اشترى شيئاً إلا ربح فيه..

لكنه ما لبث أن خرج من أحلام الطفولة هذه وصفائها إلى حيث ضجيج الحياة وأحزانها، فها هو لم يتخط العشر وقد ورد الخبر بنعي أبيه حيث استشهد في أرض بعيدة حيث لا يطمع حتى في نظرة وداع واحدة.. «.. أخذ بيدي (رسول الله) يمسح بيده رأسي حتى رقى المنبر وأجلسني أمامه على الدرجة السفلى والحزن يعرف عليه، فقال إن المرء كثير بأخيه وابن عمه، إلا أن جعفراً قد استشهد

وجعل له جناحان يطير بهما في الجنة.. ثم نزل ودخل بيته وأدخلني معه وأمر بطعام يصنع لأجلي وأرسل إلى أخي فتغذينا عنده غذاء طيباً مباركاً وأقمنا ثلاثة أيام في بيته ندور معه كلما صار في بيت إحدى نسائه ثم رجعنا إلى بيتنا..».

وصار عبد الله في بيت عمه أمير المؤمنين وتحت كفالته، بعد أن توفي أبو بكر الذي تزوج أمه أسماء بنت عميس وبقي معها فترة قصيرة، ليصبح في كنف الإمام الذي تزوج أسماء بعد ذلك.. وتعاضدت تربية أمير المؤمنين عليه السلام إلى جانب وراثته لصفات أبيه جعفر الحميدة، لتصنع منه رجلاً، في عداد القادة والشخصيات..

ورث من أبيه الطيار حب المساكين والضعفاء والعطف عليهم وتعلم من عمه الجود وعدم التعلق بالمال، فاجتمع هذا وذاك ليصبح ابن جعفر مضرب المثل في العطاء والكرم، حتى أصبح يلقب (ببحر الجود).

فقد جاء إليه رجل وكان قد ركب ناقة فارهة ليخرج إلى ضيعة له، وقال له: يا بن عم رسول الله.. ابن سبيل ومنقطع به. فأخرج عبد الله رجله من ركاب الناقة ونزل عنها، وقال: ضع رجلك واستو عليها، فهي لك بما عليها وخذ ما في الحقيبة، ولا تخدعن في السيف فإنه من سيوف علي..

وذهب هذا الرجل ليرى أنه قد أصبح من أغنى الناس فإضافة إلى الناقة التي أعطي كان في الحقيبة أربعة آلاف دينار ومطارف من خز..

وإذا كان المال يتملك نفوس بعض أصحابه، فإن المال عند ابن جعفر لم يكن ليبقى حتى يؤثر أو لا يؤثر، حتى لقد عوتب على كثرة العطاء، و(نُصح) بمسك يده شيئاً ما.. لكنه كان يقول دائماً: إن الله عودني أن يتفضل علي وعودته أن أتفضل على عباده، فأخاف أن

أقطع هذه العادة فيقطع عني ثم تمثل قائلاً:

لست أخشى قلة العدم	ما اتقيت الله في كرمي
كلما أنفقت يخلفه	لي رب واسع النعم

وإذا كان الحاكمون يوزعون المال يمنة ويسرة بغير حساب على مادحيهم ومرتزقة بلاطهم، والأغنياء ليصرف في مجالات اللهو والعبث، فقد كان مال ابن جعفر غيثاً مريعاً يهمي على الفقراء والضعفاء، فيحيل جدبهم خصباً. لم يكن ماله له بل لكل الناس خصوصاً ذوي الحاجة.

فقد خرج ابن جعفر مع الحسنين عليهما السلام من مكة إلى المدينة فأصابتهم السماء بمطر، فلجأوا إلى خباء أعرابي، فأقاموا عنده ثلاثة أيام حتى سكنت السماء، فذبح لهم الأعرابي شاة، فلما ارتحلوا قال عبد الله للأعرابي: إن قدمت المدينة فسل عنا. فاحتاج الأعرابي بعد سنين فقالت له امرأته لو أتيت المدينة فلقيت أولئك الفتيان، فقال قد نسيت أسماءهم فقالت: سل عن ابن الطيار. فأتى المدينة فلقي الإمام الحسن عليه السلام فأمر له بمائة ناقة ثم أتى الحسين عليه السلام فقال كفانا أبو محمد مئونة الإبل فأمر له بمائة شاة، ثم أتى عبد الله بن جعفر فقال كفاني إخواني مئونة الإبل والشياه فأمر له بمائة ألف درهم.

إلى جانب ذلك فقد كان له مع أئمته من المواقف ما أبقى له ذكراً حميداً فإضافة إلى كونه مع أمير المؤمنين في مشاهده، الجمل وصفين والنهروان وإظهاره من أشكال الجرأة ما جعل أمير المؤمنين يمنعه ويمنع الحسنين معه من مباشرة القتال.. إلا أن دوره الأساسي كان أيام الحسن المجتبى عليه السلام، حيث غدا واحداً من أصحابه الخلص، بحيث قل أن نجد موقفاً فيه الحسنان ولا يكون ابن الطيار موجوداً.. خصوصاً بعد اقترانه بعقيلة الطالبيين زينب الكبرى بنت أمير

المؤمنين.

وكان عبد الله يشهد بعينيه ذلك الهجوم المنظم على القيم الإسلامية، والهدم المتعمد لشخصيات الإسلام، وفي طليعتها أمير المؤمنين علي عليه السلام لذلك كان يدافع بما استطاع ويقف أمام هذه الانتهاكات، فقد دخل ذات يوم على معاوية وعنده عمرو بن العاص، الذي بدأ ـ مع دخول ابن جعفر ـ ينال من أمير المؤمنين عليه السلام جهاراً، فالتمع وجه عبد الله وغضب غضباً شديداً، وحسر عن ذراعه، ثم أقبل إلى معاوية، وقال له بشجاعة هاشمية:

ـ حتى مَ نجرع غيظك ونصبر على مكروه قولك وسيئ أدبك وذميم أخلاقك؟! هبلتك الهبول.؟. أما يزجرك ذمام المجالس عن قذع جليسك؟ أما والله لو عطفتك أواصر الأرحام أو حاميت على سهمك في الإسلام لما أرعيت بني الإماء أعراض قومك، فلا يدعونك تصويب ما فرط من خطئك في سفك دماء المسلمين ومحاربة أمير المؤمنين إلى التمادي فيما قد وضح لك الصواب في خلافه..

فأقبل عليه معاوية وجعل يترضاه محاولاً تسكين غضبه قائلاً:

ـ أنت ابن ذي الجناحين وسيد بني هاشم..

فقال عبد الله: كلا! سيد بني هاشم حسن وحسين عليهما السلام لا ينازعهما في ذلك أحد.

ويبدو أن معاوية كان يريد التركيز على عبد الله بن جعفر وفضله ليفصله ـ في ظنه ـ عن الحسنين ولكن عبد الله كان أذكى من معاوية، فلا يفوته موقف دون أن يسجل ولاءً جديداً، ويرشد الناس إلى القيادة الصحيحة.

يحدثنا عبد الله بن جعفر قائلاً:

كنت عند معاوية ومعنا الحسن والحسين وعنده عبد الله بن عباس والفضل بن عباس، فالتفت إلى معاوية فقال:

ـ يا عبد الله ما أشد تعظيمك للحسن والحسين!! وما هما بخير منك ولا أبوهما خير من أبيك، ولولا أن فاطمة بنت رسول الله ﷺ لقلت ما أمك أسماء بنت عميس بدونها!!

فقلت: والله إنك لقليل العلم بهما وبأبيهما وبأمهما، بل والله لهما خير مني وأبوهما خير من أبي وأمهما خير من أمي، يا معاوية إنك لغافل عما سمعته من رسول الله ﷺ يقول فيهما وفي أبيهما وأمهما، وقد حفظته ووعيته ورويته؟..

قال معاوية: هات يابن جعفر.. فوالله ما أنت بكذاب ولا متهم.

فقلت: إنه أعظم مما في نفسك.

قال: وإن كان أعظم من أحد وحراء جميعاً فلست أبالي إذا قتل الله صاحبك وفرق جمعكم وصار الأمر في أهله، فحدثنا فما نبالي بما قلتم ولا يضرنا ما عددتم!.

قلت: سمعت رسول الله ﷺ وقد سئل عن هذه الآية ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن﴾ فقال: إني رأيت اثني عشر رجلاً من أئمة الضلالة يصعدون منبري ـ وينزلون، يردون أمتي على أدبارهم القهقرى، وسمعته يقول: إن بني العاص إذا بلغوا خمسة عشر رجلاً جعلوا كتاب الله دخلاً وعباد الله خولاً ومال الله دولاً.

يا معاوية: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر وأنا بين يديه ـ وعمرو ابن أبي سلمة وأسامة بن زيد وسعد ابن أبي وقاص وسلمان الفارسي وأبو ذر والمقداد والزبير بن العوام وهو يقول: ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟! فقلت: بلى يا رسول الله.. قال:

أليس أزواجي أمهاتكم؟! قلنا: بلى يا رسول الله. قال: من كنت مولاه فعلي مولاه، أولى به من نفسه، وضرب بيده على منكب علي فقال: اللهم وال من والاه وعاد من عاداه. أيها الناس أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ليس لهم معي أمر وعلي من بعدي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ليس لهم معه أمر ثم عاد فقال: أيها الناس إذا استشهدت فعلي أولى بكم من أنفسكم، فإذا استشهد علي فابني الحسن أولى بالمؤمنين منهم بأنفسهم وإذا استشهد الحسن فابني الحسين أولى بهم من أنفسهم [1].

قضى الإمام الحسن! نتيجة مؤامرة دبرها معاوية ابن أبي سفيان، الذي بدأ يعد العدة لتنصيب ابنه يزيد خليفة بعده.. وهكذا وجد أولئك المسلمون أنفسهم مضطرين لمبايعة من نصبه معاوية بعد أن تقاعسوا عن مبايعة من نصبه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.. فكتب إلى واليه على المدينة سعيد بن العاص أن يأخذ البيعة من عموم الناس... وهكذا صنع سعيد إلا أن غالب الناس لم تستجب لهذه الدعوة خصوصاً أهل البيت! فكتب معاوية كتباً إلى الإمام الحسين! وابن عباس وعبد الله بن الزبير وكتب إلى عبد الله بن جعفر:

أما بعد فقد عرفت آثرتي إياك على من سواك وحسن رأيي فيك وفي أهل بيتك وقد أتاني عنك ما كره، فإن بايعت تشكر وإن تأب تجبر، والسلام.

فكتب إليه عبد الله بن جعفر رداً:

أما بعد، فقد جاءني كتابك وفهمت ما ذكرته فيه من آثرتك إياي على من سواي، فإن تفعل فبحظك أصبت وإن تأب فبنفسك قصرت وأما ما ذكرت من جبرك إياي على البيعة ليزيد فلعمري

---

(١) الغدير ١/ ٢٥٠

لئن أجبرتني عليها، لقد أجبرناك وأباك على الإسلام حتى أدخلناكما كارهين غير طائعين والسلام [١].

ولما وصلت إلى معاوية أجوبة الكتب رأى أن يقوم بزيارة إلى المدينة ليتابع الموضوع شخصياً ويطبقه بأي ثمن.. وتحدث مع الإمام الحسين وابن عباس عن محاولته في " أمر الرعية من سد الخلل ولم الصدع بولاية يزيد بما أيقظ العين وأحمد الفعل.. هذا معناي في يزيد ـ أضاف معاوية ـ وفيكما فضل القرابة وحظوة العلم وكمال المروءة، وقد أصبت من ذلك عند يزيد على المناظرة والمقابلة ما أعياني مثله عندكما وعند غيركما!! مع عمله بالسنة وقراءة القرآن والحلم الذي يرجح بالصم الصلاب..". كانت ابتسامة ساخرة تنطبع على شفتي ابن عباس ومعاوية يتكلم بينما انبرى له الإمام الحسين عليه السلام قائلاً:

«... وفهمت ما ذكرته عن يزيد من اكتماله وسياسته لأمة محمد، تريد أن توهم الناس في يزيد كأنك تصف محجوباً أو تنعت غائباً أو تخبر عما كان مما احتويته بعلم خاص. وقد دل يزيد من نفسه على موقع رأيه فخذ ليزيد فيما أخذ فيه من استقرائه الكلاب المهارشة عند التهارش والحمام السبق لأترابهن والقيان ذوات المعازف وضرب الملاهي تجده باصراً ودع عنك ما تحاول فما أغناك أن تلقى الله من وزر هذا الخلق بأكثر مما أنت لاقيه، فوالله ما برحت تقدح باطلاً في جور وحنقاً في ظلم حتى ملأت الأسقية وما بينك وبين الموت إلا غمضة ..»[٢].

وصدق الإمام الحسين عليه السلام فقد انتهت تلك الغمضة، وانتهى

---

(١) الإمامة والسياسة ١/ ١٨٠

(٢) الإمامة والسياسة/ ١٨٦

معاوية إلى موضع لا ينفعه فيه دهاؤه ولا يعينه مكر ابن العاص.. ولكن بعد أن وسد الأمر بالقوة لابنه يزيد..

الأحداث تتسارع وها هو الحسين عليه السلام يخرج من مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لطلب الإصلاح في أمة جده، يريد أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويسير بسيرة جده وأبيه.

وإذا كان عبد الله بن جعفر قد اقترح على الإمام الحسين عليه السلام عدم الذهاب إلى العراق والكوفة بالذات لتجارب الخذلان المريرة فيها مشفقاً عليه من المصير الذي ينتظره، فإن ذلك لم يكن من منطلق المعارضة لتحركه. كيف وهو القائل أنه لولا المرض الذي يحول بينه وبين السفر لتشرف بالذهاب معه..

ودعا الإمام الحسين عليه السلام أخته زينب الكبرى للذهاب معه في سفره لأن الله أعد لها دوراً بعد شهادة الإمام يقضي بحمل الراية الحسينية في قافلة السبي، وتبليغ أهداف الثورة الحسينية إلى جماهير الناس المضللة والغافلة، وكشف الوجه الحقيقي لبني أمية.

وجاءت زينب إلى زوجها عبد الله مستأذنة إياه في هذا السفر الشاق: هل تأذن لي يا ابن العم بالسفر مع أخي الحسين؟!.

ويغص ابن الطيار بحرج الموقف.. إلا أنه يجيبها في عزم ويقين..

ـ يا ابنة العم كنت أود أن أكون برفقة ابن عمي وسيدي الحسين لولا المرض الذي يحول بيني وبين ذلك..

وسكت هنيهة، وغاص في بحار فكره.. ماذا لو أرسل ابنيه محمداً وعوناً مع خالهما يعينانه ويدافعان عنه.. مادام لا يستطيع أن يصنع بنفسه ذلك.. ولكن ما هو رأي أمهما.. أتراها توافق على ذلك أم يمنعها قلب الأمومة؟! وتوجه إلى زوجته سائلاً إياها:

ـ هل تقبلين أن يكون ولدانا محمد وعون في ركاب خالهما في

سفره هذا؟!.

وكان ذلك منتهى الفرحة لدى زينب، فستنصر أخاها مرتين مرة بنفسها وأخرى بأولادها..

وإذ يبلغ النبأ ابن جعفر بعد العاشر، يعتمل في نفسه شعور مزدوج بالحزن على مصاب الحسين عليه السلام وشهادته والفخر بشهادة ابنيه.. وفيما هو يستقبل المعزين، يقول أحد غلمانه: ماذا لقينا من الحسين؟!.

فغضب ابن الطيار وصرخ عليه قائلاً: يا بن اللخناء أللحسين تقول هذا والله لو شهدته لما فارقته حتى أقتل معه وقد هون علي مصابهما أنهما قتلا مع أخي وابن عمي وسيدي مواسيين له صابرين معه..

الحمد لله.. لقد عز علي مصرع الحسين، وإذ لم كن قد واسيته بنفسي فقد واسيته بولدي.

قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري

الوفاة: سنة ٥٨ هـ بالمدينة

« وكان قيس يستدين ويطعمهم فقال أبو بكر وعمر: إن تركنا هذا الفتى أهلك مال أبيه فمشيا في الناس فصلّى النبي ﷺ يوماً فقام سعد بن عبادة خلفه فقال من يعذرني من ابن أبي قحافة وابن الخطاب يبخلان عليّ ابني..»

الحافظ الذهبي

كالحنظل في فمه الذكريات، والحاضر أشدّ مرارة.

ها هو يشهد بأمّ عينيه ويلامس بكلتا يديه، نبوءة الزهراء فاطمة عليها السلام في خطبتها في مسجد رسول الله بعد وفاته.. «أما لعمري لقد لقحت فنظرة ريثما تنتج ثم احتلبوا من القعب دماً عبيطاً وذعافاً مبيداً هنالك يخسر المبطلون ويعرف الباطلون غبّ ما أسس الأولون، ثم طيبوا عن دنياكم أنفساً واطمئنوا للفتنة جأشاً وابشروا بسيف صارم وسطوة معتد غاشم وبهرج شامل واستبداد من الظالمين يدع فيئكم زهيداً وجمعكم حصيداً.».

ها هم المسلمون يحتلبون الدماء من ضرع معيشتهم ويتجرعون السموم شراب يومهم، لا تمر سنة إلاّ وهي أسوأ من سابقتها.. وتجاوز عدد بني العاص ثلاثين وأربعين، واتخذوا مال الله دولاً وعباده خولاً، وها هو معاوية ابن أبي سفيان في صراحة أموية، يقول: « ما قاتلتكم لتصلوا ولا لتصوموا ولا لتحجوا.. وإنما قاتلتكم لأتأمّر

عليكم »، بل لا يجد حرجاً في أن يرد على من عاتبه أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حرّم لبس الحرير: أما أنا فلا أرى به بأساً.

ويعود قيس بن سعد بن عبادة إلى البدايات، والده الذي اغتيل بسهم السيف المسلول.. ثم قالوا، ويا للسخرية: قتلته الجن!! ومتى كانت الجن تدخل في تصفية حساب الخلافة مع مناوئيها؟! ثم تنشد شعراً بالمناسبة؟.

لا يزال يتذكر كيف جرت الأحداث بتفاصيلها رغم مرور أكثر من ثلاثين عاماً، وكيف ينساها وقد حفرت آثارها على كل شيء في حياة المسلمين وهل كان معاوية إلاّ نتيجة طبيعية لتلك الأحداث.

لحق الرسول بخالقه، بعد أن أكمل مهمته في التبليغ وتوجها بيوم الغدير حيث أعلن وصاية علي بن أبي طالب وولايته على المسلمين بعد الرسول.. أيام قليلة تلت ذلك الاجتماع العظيم، وحلّت الفاجعة عندما أغمض عينيه الشريفتين.. واشتغل كل بما كان يهمه، فبينما سارع علي عليه السلام لتجهيز الرسول ودفنه، سارع غيره ـ تاركين الرسول ـ للاشتراك في سباق الخلافة. وخلال ساعة زمان طرح سعد بن عبادة مرشح الأنصار تحت الأرجل، وصفق عمر بن الخطاب على يد أبي بكر معلناً أنه قد صار (خليفة رسول الله) وبالرغم من عدم حضور كبار الصحابة وفي طليعتهم وصي الرسول عليّ وأمثال سلمان والمقداد وأبي ذر وعمّار، وغيرهم، إلاّ أن الطرف الآخر كان قد فرض أمراً واقعاً، وبدأ يدافع عنه.. فمن لا يبايع بالرضا يجبر عليها ويكره، وإلاّ فإن (الجن) حاضرة لاغتياله!! وخاف الكثير من سهام (الجن)!!.

وهكذا تمّت السيطرة على خلافة الرسول!! ولم تجد صيحات الاستنكار ونقاشات الأصحاب، وإقناع ذوي الرأي والمعرفة أذناً صاغية.

إنه.. يتذكر موقف الزهراء بنت رسول الله عليها السلام عندما بدأت تقرع أسماع القلوب بتلك الخطبة الرائعة، محللة فيها وضع العرب قبل الإسلام وجهاد الرسول حتى غير تلك الأوضاع ومقام أمير المؤمنين علي من الرسالة.. وأبكت من كان حاضراً، وهي ترفع ظلامة الإسلام، وظلامة الوصي وظلامتها.

« ألا وقد أرى أن قد أخلدتم إلى الخفض وأبعدتم من هو أحق بالبسط والقبض وخلوتم بالدعة ونجوتم من الضيق بالسعة فمججتم ما وعيتم ودسعتم الذي تسوغتم فإن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد.

ألا وقد قلت ما قلت على معرفة بالخذلة التي خامرتكم والغدرة التي استشعرتها قلوبكم ولكنها فيضة النفس ونفثة الغيظ وبثّة الصدر وتقدمة الحجة فدونكموها فاحتقبوها دبرة الظهر نقبة الخف باقية العار موسومة بغضب الجبار وشنار الأبد موصولة بنار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة فبعين الله ما تفعلون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون وأنا ابنة نذير لكم بين يدي عذاب شديد فاعلموا أنّا عاملون وانتظروا إنا منتظرون ».

وبقي قيس مع أمير المؤمنين عليه السلام وفي خطه، لا يلويه عنه طمع منصب ولا تقريب سلطان، حتى عاد الحق ملقياً بجرانه إلى مكانه،» فأقبلتم إليّ إقبال العوذ المطافيل على أولادها تقولون: البيعة البيعة! قبضت كفي فبسطتموها ونازعتكم يدي فجذبتموها ».

وبدأ الإمام ينتخب القادة الصالحين والولاة الأكفّاء، فولى قيساً مصر سنة ٣٦ هـ وقال له: سر فقد وليتكها، وأخرج إلى ظاهر المدينة واحمل إليك ثقاتك ومن أحببت أن يصحبك حتى تأتي مصر ومعك جند فإن ذلك أرعب لعدوك وأعز لوليك، فإذا أنت قدمتها إن شاء الله فأحسن إلى المحسن واشدد على المريب وارفق بالعامة

والخاصة فإن الرفق يمن.

فقال قيس:

ـ رحمك الله يا أمير المؤمنين.. قد فهمت ما ذكرت أما الجند فإني أدعه لك فإذا احتجت إليهم كانوا قريبا منك وإن أردت بعثهم إلى وجه من وجوهك كان لك عدة ولكني أسير إلى مصر بنفسي وأهل بيتي وأما ما أوصيتني به من الرفق والإحسان فالله هو المستعان على ذلك.

وخرج قيس في سبعة نفر من أهله حتى دخل مصر فصعد المنبر خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وقال: الحمد لله الذي جاء بالحق وأمات الباطل وكبت الظالمين. أيها الناس إنا بايعنا خير من نعلم بعد نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقوموا بايعوا على كتاب الله فإن نحن لم نعمل لكم بذلك فلا بيعة لنا عليكم.

لقد أكد مواقفه، وعقيدته في أن الحق قد جاء مع أمير المؤمنين وأميت الباطل، وأكد أن علياً هو خير الناس بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وقام الناس فبايعوا واستقامت مصر وأعمالها لقيس وبعث عليها عمّاله إلاّ أن قرية منها يقال لها (خربتا) قد أعظم أهلها قتل عثمان وبها رجل من كنانة يقال له يزيد بن الحارث، فبعثوا إلى قيس أنا لا نقاتلك فابعث عمّالك فالأرض أرضك ولكن أقرنا على حالنا حتى ننظر إلى ما يصير أمر الناس ووثب محمد بن مسلمة بن مخلد الأنصاري فنعى عثمان ودعا إلى الطلب بدمه فأرسل إليه قيس: ويحك أعليّ تثب؟! والله ما أحب أنّ لي ملك مصر والشام وأني قتلتك فاحقن دمك.

فأرسل إليه محمد بن مسلمة: إني كاف عنك ما دمت أنت والي

مصر [(١)].

واستطاع قيس ضبط أمور مصر، وبعد مصر ولاّه الإمام أمور آذربيجان.

إن قيساً حين يعين في البداية والياً على مصر، يقبل ذلك بطيبة نفس وحين يستدعى منها يتقبل ذلك بهدوء خاطر بل إنه يواجه محاولات استثارته من قبل حسان بن ثابت يواجهها بوعي كاف، ويصده، فقد جاءه حسان شامتاً به (وكان عثماني الهوى) فقال له:

ـ نزعك علي بن أبي طالب، وقد قتلت عثمان، فبقي عليك الإثم ولم يحسن لك الشكر.

فزجره قيس وقال: يا أعمى القلب وأعمى البصر والله لولا أن ألقي بين رهطي ورهطك حرباً لضربت عنقك.. ثم أخرجه من عنده.

وحينما أعلن معاوية التمرّد على حكم أمير المؤمنين عليه السلام، تجهّز الإمام لقتاله.. فكان استدعى قيساً من آذربيجان، نظراً لما يمثله قيس من شخصية مهمة بين الأنصار، ومن كفاءة استثنائية بين أصحاب الإمام فقد كتب إليه:

ـ « أما بعد فاستعمل عبد الله بن شبيل الأحمسي خليفة لك واقبل إلي فإن المسلمين قد أجمع ملأهم وانقادت جماعتهم فعجّل الإقبال فأنا سأحضرن إلى المحلين عند غرة الهلال إن شاء الله وما تأخري إلاّ لك، قضى الله لنا ولك بالإحسان في أمرنا كله ».

ووصل من كان ينتظره الجيش وقائده إلى الكوفة واستقبله الإمام عليه السلام وجمع أصحابه، فقال لهم:

---

(١) تاريخ الطبري ٥/ ٢٢٧

ـ أما بعد.. فإنكم ميامين الرأي، مراجيح الحلم، مقاويل بالحق مباركو الفعل والأمر، وقد أردنا المسير إلى عدونا وعدوكم، فأشيروا علينا برأيكم.

كان قيس يعلم أن الموقف الشجاع يمكن أن يسيطر على الموقف، فيعشي خفافيش الخوف، وينير مصابيح الإقدام، وعكسه تماماً موقف التردد والجبن.. لذلك قام منتصباً بقامته الشامخة وقال، بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

ـ يا أمير المؤمنين، انكمش (أسرع) بنا إلى قتال عدونا ولا تعرّج (تتوقف) فوالله لجهادهم أحب إليّ من جهاد الترك والروم لإدهانهم في دين الله واستذلالهم لأولياء الله من أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم من المهاجرين والأنصار والتابعين بالإحسان، إذا غضبوا على رجل حبسوه أو ضربوه أو حرموه أو سيروه، وفيؤنا لهم في أنفسهم حلال، ونحن لهم فيما يزعمون قطين (رقيق).

وتتابع المتكلمون يستوحون من كلمات قيس محاور خطابهم.. وهكذا عقد الإمام الألوية، وأخرج لواء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم ير ذلك اللواء منذ قبض رسول الله. وكانت الأعين ترمقه فيثير فيها ذكريات بدر وأحد وخيبر وسائر الغزوات.. والجميع يتأمل لمن سيعطيه الإمام؟! وعاد إلى الذاكرة موقف الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في خيبر عندما قال: لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله كرار ليس بفرار يفتح الله على يديه، وتمنى الجميع أن يكون ذلك الواحد وحبست الأنفاس في اليوم التالي: ليروا أي ماجد يعطاها، ودعا رسول الله صاحبها عليّاً أمير المؤمنين عليه السلام..

وتعلقت الأنظار باللواء لما نشره أمير المؤمنين وبكى البدريون والأنصار.. بكوا فجيعتهم برسول الله وبكوا مظلومية أمير المؤمنين، وبكوا شوقاً إلى لقاء صاحب اللواء.

ولكن.. هل سيحتفظ الإمام به لنفسه؟! و إلاّ فلمن سيعطيه؟ من هو صاحب الشرف والشجاعة؟!.

قيس بن سعد بن عبادة، فقد دعى الإمام قيساً ودفع إليه اللواء واجتمعت الأنصار والبدريون إليه وهم يبكون فأنشأ قيس:

هذا اللواء الذي كنّا نحف به مع النبي وجبريل لنا مدد
ضر من كانت الأنصار عيبته ألايكون له من غيرهم أحد
قوم إذا حاربوا طالت أكفهم ما بالمشرفية حتى يفتح البلد

وانطلق قيس بهذا الإيمان الثابت، يتوسط جيش معاوية فيكثر القتل ويثخن فيغيب فيهم حتى يظن أنه لن يعود، ثم يرجع وهو يقول:

والخزرجيون رجال سادة أنا ابن سعد زانه عبادة
إن الفرار للفتى قلادة ليس فراري في الوغى بعاد
والقتل خير من عناق غادة يا رب أنت لقنّي الشهادة

حتى متى تثنى لي الوسادة

وهكذا فقد غم معاويةَ مواقفُ الأنصار وقتالهم.. فقد قال: لقد غمني ما لقيت من الأوس والخزرج، صاروا واضعين سيوفهم على عواتقهم يدعون إلى النزال حتى والله جبّنوا أصحابي الشجاع والجبان، وحتى والله ما أسأل عن فارس من أهل الشام إلاّ قالوا: قتلته الأنصار !!.

ويصل الخبر إلى قيس بن عبادة، فيمتلىء سروراً.. ها هو ـ

ومعه الأنصار ـ يملأون قلب معاوية كمداً.. وجمع الأنصار فقام خطيباً:

ـ.. إن معاوية قد قال ما بلغكم وأجاب عنكم صاحبكم فلعمري لئن غظتم معاوية اليوم فقد غظتموه بالأمس، وإن وترتموه في الإسلام فقد وترتموه في الشرك وما لكم إليه من ذنب أعظم من نصر هذا الدين الذي أنتم عليه؟ فجدّوا اليوم جداً تنسونه به ما كان أمس وجدوا غداً تنسونه به ما كان اليوم، وأنتم مع هذا اللواء الذي كان يقاتل عن يمينه جبرئيل وعن يساره ميكائيل والقوم مع لواء أبي جهل والأحزاب..[1].

وكان قيس يهيئ لمعاوية يوماً أحمر، لو لم يتنكر، فقد قام برصده وتابع حركاته ثم قنعه بالسيف وشق رأسه، فإذا به غير معاوية، ذلك أن معاوية جعل عدداً من عسكره يتنكرون في مثل لبسه وحليته لكي ينجو. وانتهت صفين بمهزلة التحكيم التي حكم فيها الجاهلون على أهل الوعي والبصيرة تحت تهديد السلاح، وقتل الإمام!!، واستطاع أولئك القرّاء الذين يخرجون من الدين كالسهم من الرمية، أن يوقفوا الحرب، لصالح معاوية وجيشه، وأن يضطرّوا أمير المؤمنين عليه السلام للعودة بينما يرجعون هم لقيادة الفتنة من جديد، فبينما كانوا بالأمس شهروا السلاح بوجه أمير المؤمنين لأنه كان يريد مواصلة القتال ويرفض التحكيم ها هم اليوم يشهرون نفس السلاح لأن الإمام اضطر ـ بجهلهم وحمقهم ـ إلى التحكيم، ومادام قد عقد عقداً فلا يستطيع نقضه، والقتال، وها هم يكفّرونه لأنه قبل التحكيم الذي اضطروه إليه.

وتحزبوا في النهروان، بعد أن عاثوا في بلاد الله فساداً، وخرج

---

(١) تاريخ الطبري ٦/ ٤٧

إليهم أمير المؤمنين عليه السلام، وأراد أن يقيم عليهم الحجة، فكان يبعث بالرسل إليهم واعظين محذرين، وقد أتت هذه الطريقة أكلها، فقد اعتزل عن الخوارج عدة آلاف.. ودعا الإمام قيساً وبعثه إليهم، فخرج إليهم وقال:

ـ عباد الله.. اخرجوا إلينا طلبتنا منكم وادخلوا في هذا الأمر الذي خرجتم منه، وعودوا بنا إلى قتال عدونا وعدوكم، فإنكم ركبتم عظيماً من الأمر، تشهدون علينا بالشرك والشرك ظلم عظيم، تسفكون دماء المسلمين وتعدونهم مشركين!!.

وما كانت القلوب بعد أن أحاطت بها خطاياها تزيد إلاّ ضلالاً، وطغياناً. تلك القلوب المظلمة، هي التي سلت سيف حقدها المغموس في سم جهلها، لتعمم به سيد الخلق بعد الرسول في فجر التاسع عشر من شهر رمضان، فيهوي فائزاً سعيداً بلقاء ربه والأنس بحبيبه.

وبالرغم من عظم الخسارة التي شعر بها قيس بفقدانه معلمه وأميره علي بن أبي طالب إلاّ أنه كان يرتبط بأمير المؤمنين الذي يجسد خط الإمام الإسلام، والذي استمر ممثلاً بابنه الحسن السبط!، فكان المبرز بين أصحابه، وكيف لا وهو الذي أثبت جدارته وكفاءته في أكثر من موقع. فقد كان مستشار قائد الجيش الذاهب لحرب معاوية عبيد الله بن العباس ونائبه.

وهكذا عاد قيس مرة أخرى لقتال معاوية، وكان من الممكن ألاّ يقاتله إلاّ مرة واحدة، لولا أصحاب اللحى الطويلة والعقول القصيرة، وهل أضرّ الإسلام غير هؤلاء، وغير أولي الأطماع عبيد الذات؟!.

فأما معاوية فإنه وافى حتى نزل قرية يقال لها: الحيوضة بمسكن وأقبل عبيد الله بن عباس حتى نزل بإزائه فلما كان من غد وجّه

معاوية بخيل إلى عبيد الله فيمن معه فضربهم حتى ردّهم إلى معسكرهم، فلما كان الليل أرسل معاوية إلى عبيد الله بن عباس: أن الحسن قد راسلني في الصلح وهو مسلم الأمر إليّ فإن دخلت في طاعتي الآن كنت متبوعاً و إلاّ دخلت وأنت تابع، ولك إن أجبتني الآن أن أعطيك ألف ألف درهم أعجل لك في هذا الوقت نصفها وإذا دخلت الكوفة النصف الآخر.

فأقبل عبيد الله إليه ليلاً فدخل عسكر معاوية فوفى له بما وعده وأصبح الناس ينتظرون عبيد الله أن يخرج، فطلبوه فلم يجدوه، فصلّى بهم قيس بن سعد بن عبادة ثم خطبهم فثبتهم وذكر عبيد الله فنال منه ثم أمرهم بالصبر والنهوض إلى العدو فأجابوه بالطاعة وقالوا له: انهض بنا إلى عدونا على اسم الله، فنزل فنهض بهم وخرج إليه بسر بن أرطأة فصاح إلى أهل العراق: ويحكم هذا أميركم عندنا قد بايع وإمامكم الحسن قد صالح فعلام تقتلون أنفسكم؟!.

فقال لهم قيس بن سعد اختاروا إحدى اثنتين: إما القتال مع غير إمام وإما أن تبايعوا بيعة ضلال.. فقالوا: بل نقاتل بلا إمام فخرجوا فضربوا أهل الشام حتى ردوهم إلى مصافهم، فكتب معاوية إلى قيس يدعوه ويمنيه، فكتب إليه قيس:

لا والله لا تلقاني أبداً إلاّ بيني وبينك الرمح [1]!!

❁❁❁

لا شيء أثقل على الأبطال من رؤية أعدائهم فاتحين!!

وأثقل من ذلك عندما يكون النصر من غير جدارة! وليس في ميدان المعركة، إن أفراد جيش الإمام أمير المؤمنين! الذين تمنى فراقهم

---

(١) شرح النهج ٤/١٤

بعد أن جرعوه نغب التهمام أنفاساً، أسلموا ابنه الحسن وخانوه، بل تآمر بعضهم لاغتياله، وها هم يشهدون نتيجة ذلك..

« وأيمّ الله لتحتلبن ملء القعب دماً عبيطاً وذعافاً مبيداً..».

معاوية ابن أبي سفيان، يدخل اليوم الكوفة يفترعها اغتصاباً. بعد أن ترك أهلها أسنة رماحهم، وعزّة سيوفهم وقيس يجد اليوم في حلقه مرارة الحنظل، ويلوك العلقم!! وتمر الذكريات بعينيه مخلفة وراءها دمعة الأسى.

ما الذي يستطيع أن يفعل؟! لقد تعاهد مع شرطة الخميس أن يستمروا على قتال معاوية، لكنهم بعد أن علموا أن الإمام الحسن عليه السلام تقديراً منه للوضع وحفظاً لدماء شيعته وصحابة أبيه، وأيضاً لفضح معاوية وإظهار حقيقة أمره (صالح)، ولم يلن قيس إلاّ بعد أن أرسل إليه معاوية بسجل قد ختم عليه في أسفله وقال: اكتب ما شئت فهو لك.. واشترط قيس له ولشيعة علي أمير المؤمنين عليه السلام الأمان على ما أصابوا من الدماء والأموال [1].

وجلس معاوية للبيعة وأتاه قيس فقال معاوية: بايع يا قيس!!.

فقال قيس: إني كنت لأكره مثل هذا اليوم يا معاوية.

قال معاوية: مه رحمك الله.

فقال قيس: لقد حرصت أن أفرّق بين روحك وجسدك قبل ذلك فأبى الله يا ابن أبي سفيان إلاّ ما أحب.

قال معاوية: فلا يرد أمر الله!!.

وأقبل قيس على الناس بوجهه: يا معشر الناس، لقد اعتضتم الشرّ من الخير واستبدلتم الذلّ من العز، والكفر من الإيمان،

---

(١) الغدير ٢/ ١٥٤

فأصبحتم بعد ولاية أمير المؤمنين وسيد المسلمين وابن عم رسول رب العالمين، وقد وليكم الطليق ابن الطليق يسومكم الخسف ويسير فيكم بالعسف فكيف تجهل ذلك أنفسكم أم طبع الله على قلوبكم وأنتم لا تعقلون.

وجلس قيس على كرسي، وأمر معاوية أن يوضع بينهما رمح ليبر يمينه، ولم يتحرك قيس من مكانه ووضع يده على فخذه فجاء معاوية من سريره وأكب على قيس حتى مسح يده وما رفعها قيس إليه.

عزاؤه في ذلك أنه كان سابقاً إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. فقد شهد مشاهده كلها وسابقاً إلى ولاية أمير المؤمنين عليه السلام وسابقاً إلى معرفة حقيقة معاوية خصمه القديم العتيد، لقد كتب إليه أيام ولايته على مصر بعد أن حاول معاوية استمالته إلى جانبه: « أما بعد فإنما أنت وثن ابن وثن دخلت في الإسلام كرهاً وخرجت منه طوعاً، لم يقدم إيمانك ولم يحدث نفاقك..».

سلام على سيد الأنصار. عليه السلام.

عبدالله بن عباس بن عبد المطلب

توفي سنة ٦٧ هــولد قبل الهجرة بثلاث سنوات

« اللهم فقهه في الدين وعلّمه التأويل »

الرسول ﷺ

كما ينطلق المارد الشرير من قمقمه، فيملأ الدنيا فحيحاً، وخراباً، انبعث أشقاها عبد الرحمن بن ملجم المرادي لينفذ مهمته القذرة.. اغتيال أمير المؤمنين علي عليه السلام... انطلق بعد أن شدت الشهوة قلبه وأعمت قطام المعتكفة! في المسجد بصيرته... وراح علي عليه السلام ضحية مهووس خارجي..

وكأن الله سبحانه وتعالى يأبى لأوليائه إلاّ القتل تشريفاً لمنازلهم العالية.

واختنق الإمام الحسن السبط عليه السلام بعبراته، وهو يتذكر أحداث اليومين الماضيين. وكان لا بد من كلمة تأبين، وإن لم تحط بشخصية الإمام الفقيد:

لقد قُبض في هذه الليلة رجل لم يسبقه الأولون بعمل ولا يدركه الآخرون بعمل، لقد كان يجاهد بين يدي رسول الله ﷺ فيقيه بنفسه وكان رسول الله يوجهه برايته فيكنفه جبرئيل عن يمينه وميكائيل عن شماله، ولا يرجع حتى يفتح الله على يديه، ولقد توفي في الليلة التي عرج فيها بعيسى ابن مريم، وقبض فيها يوشع بن نون وما خلف صفراء ولا بيضاء، إلاّ سبعمائة درهم فضلت من عطائه

أراد أن يبتاع بها خادماً لأهله..

وكان الموقف بحاجة إلى رجل مواقف..

عبد الله بن عباس، فارس القرآن، قام منتصباً وقال: معاشر الناس هذا ابن نبيكم ووصي إمامكم قوموا فبايعوه..

ولم يكن هذا الموقف اليتيم لابن عباس، فقصته في الولاء لأهل بيت النبوة قديمة.. فلنتتبع مواقف حبر الأمة الذي أجمع الفريقان على جلالة أمره وفقهه ومعرفته.. كيف لا.. وهو التلميذ المفضل لأمير المؤمنين علي عليه السلام.

يبدأ ابن عباس بتحديد موقفه منذ الأيام المبكرة لتطور الدعوة الإسلامية، حتى يصل إلى مفترق الطريق عند وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فيرى كيف كان الرسول لحرصه على مستقبل الأمة يسعى أن يكتب للمسلمين، وثيقة صريحة توضح المسار المطلوب والمرضي لله، إلاّ أن بعض من حضر وفي طليعتهم عمر بن الخطاب يأبى ذلك بزعم أن (الرسول يهجر)، ويتحرق ابن عباس أسى وحسرة.. أيمكن أن يصدر هذا الكلام من رجل يؤمن بأنه ﴿لا ينطق عن الهوى ۞ إن هو إلاّ وحي يوحى﴾؟!.

وتبقى عقدة الحزن والأسى هذه ترافق ابن عباس أينما حلّ وارتحل وهو يقول:

ـ إن الرزية.. كل الرزية ما حال بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبين أن يكتب لكم ذلك الكتاب.

ولم يكن بعد أن آتاه الله قلباً واعياً، ولساناً قادراً، وعلماً جمّاً، بالذي يسكت عما يراه حقاً، فقد رأى الخليفة الثاني يمشي، فمشى معه، فقال له الخليفة:

ـ أتدري ما الذي منع قومكم منكم بعد رسول الله؟!. يقول ابن

عباس، فقلت والله لا يسبقني بها أبداً.. فقلت: كلا..

فقال: كرهوا أن يجمعوا لكم النبوة والخلافة، فتبجحوا على قومكم بجحاً، فاختارت قريش لنفسها فأصابت ووفقت. لم يكن ابن عباس بالذي يسكت عما يعتقد أنه خطأ، خصوصاً فيما يرتبط بالمسائل العقيدية، فأجاب على الفور:

ـ أما قولك إن قريشاً اختارت فوفقت فلو أن قريشاً اختارت لأنفسها حين اختار الله لها لكان الصواب بيدها غير مردود ولا محسود وأما قولك أنهم كرهوا أن تكون لنا النبوة والخلافة فإن الله قد وصف قوماً بالكراهة فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾[1].

فغضب الخليفة الثاني، وقال:

ـ بلغني أنك تقول أنهم إنما صرفوها عنّا حسداً وبغياً وظلماً.

فقال ابن عباس: أما قولك ظلماً فقد تبين للحليم والجاهل، وأما قولك حسداً فإن آدم حسد ونحن ولده المحسودون[2].

وعندما تأتي الخلافة لأمير المؤمنين عليه السلام، إذ (لم تك تصلح إلاّ له) لا يلبث ذوو الدنيا، وعبدة المناصب أن يسجّروا عليه نار نكثهم وتمردهم، فكانت الجمل.. وكانت صفين، وكانت النهروان.. وفي كل هذه المواقع كان ابن عباس السفير المحنك المعتمد والمقاتل الشجاع في صف أمير المؤمنين!.

فقبل أن تبدأ حرب الجمل.. أرسل أمير المؤمنين ابن عباس إلى الزبير، وقال له: لا تلقين طلحة، فإنك إن تلقه تجده كالثور عاقصاً

---

(١) سورة محمد: ٩

(٢) بحار الأنوار ٢٨ / ٤٠٨

قرنه يركب الصعب ويقول هو الذلول، ولكن ألق الزبير فإنه ألين عريكة، فقل له: يقول لك ابن خالك عرفتني بالحجاز وأنكرتني بالعراق، فما عدا مما بدا؟! [1].

وبالفعل فقد رأى الرسالة، لكن الدوامة التي صنعها عبد الله لأبيه الزبير، وأحلام الرئاسة كانت أقوى من الدعوات المخلصة تلك.. وهكذا وقعت الحرب بقيادة عائشة أم المؤمنين، ومعها جميع الخارجين على أمير المؤمنين من جهة، بينما كان علي بن أبي طالب ومعه البدريون من جهة أخرى.

ما إن انتهت حرب الجمل بهزيمة المعسكر المعادي لأميرالمؤمنين عليه السلام حتى بعث بابن عباس إلى عائشة يأمرها بتعجيل الرحيل وقلة العرجة.. ولندع ابن عباس يكمل ما حدث:

تيتها وهي في قصر بني خلف في جانب البصرة، فطلبت الإذن عليها فلم تأذن فدخلت عليها من غير إذنها فإذا بيت قفار لم يعد لي فيه مجلس، فإذا هي من وراء سترين فضربت ببصري فإذا من جانب البيت رحل عليه طنفسة، فمددت يدي، فجلست عليها.

فقالت ـ من وراء الستر ـ: أخطأت السنة دخلت بيتنا بغير إذننا وجلست على متاعنا بغير إذننا.

فقلت لها: نحن أولى بالسنة منك ونحن علّمناك السنة وإنما بيتك الذي خلفك فيه رسول الله فخرجت منه ظالمة لنفسك غاشة لدينك عاتبة على ربك عاصية لرسول الله فإذا رجعت إلى بيتك لم ندخله إلاّ بإذنك ولم نجلس على متاعك إلاّ بأمرك. إن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بعث إليك يأمرك بالرحيل إلى المدينة وقلة العرجة.

---

(١) نهج البلاغة / ٣١

فقالت: رحم الله أمير المؤمنين، ذلك عمر بن الخطاب.

فقلت: هذا والله أمير المؤمنين وإن تربدت فيه وجوه ورغمت فيه معاطس (أنوف) أما والله لهو أمير المؤمنين وأمس برسول الله ﷺ رحماً وأقرب قرابة وأقدم سبقاً وأكثر علماً و أعلى مناراً وأكثر آثاراً من أبيك ومن عمر.

فقالت: أبيت ذلك.

فقلت: أما والله إن كان إباؤك فيه لقصير المدة عظيم التبعة ظاهر الشؤم بين النكد مبين المنكر، وما كان إباؤك فيه إلاّ حلب شاة حتى صرت ما تأمرين ولا تنهين ولا ترفعين ولا تضعين وما مثلك إلاّ كمثل ابن الحضرمي بن نجمان أخي بني أسد حيث يقول:

مازال أهداء القصائد بيننا	شتم الصديق وكثرة الألقاب
حتى تركتهم كأن قلوبهم	في كل مجمعة طنين ذباب

قال ابن عباس: فأراقت دمعتها وأبدت عويلها وتبدى نشيجها، ثم قالت: أخرج والله عنكم فما في الأرض أبغض من بلد تكونون فيه.

فقلت: فوالله ماذا بلاؤنا عندك ولا بصنيعنا إليك إن جعلناك للمؤمنين أماً وأنت بنت أم رومان وجعلنا أباك صدّيقاً وهو ابن أبي قحافة.

فقالت: يا ابن عباس تمنون عليّ برسول الله؟!.

فقلت: ولم لا نمن عليك بمن لو كان منك قلامة منه مننت به ونحن لحمه ودمه ومنه وإليه، وما أنت إلاّ حشية من تسع حشايا خلفهن بعده لست بأبيضهن لوناً ولا بأحسنهن وجهاً ولا بأرشحهن عرفاً ولا بأنضرهن ورقا ولا بأطراهن أصلاً، فصرت تأمرين فتطاعين وتدعين فتجابين وما مثلك إلاّ كما قال أخو بني

فهر:

مننــت علــى قــومي فأبــدوا عــداوة

فقلت لهم كفوا العداوة والنكرا

ثم نهضت فأتيت إلى أمير المؤمنين فأخبرته بمقالتها وما رددت عليها، فقال: أنا كنت أعلم بك حيث بعثتك[١]

لقد كان ابن عباس، إضافة إلى علمه الوافر، شديد الذكاء، وخبيراً بفنون الجدال ولا يخدع، لذلك كان الإمام يعتمد عليه في مهماته التي تحتاج هذه الصفات فقد كان رأي الإمام أن يكون ابن عباس أحد الحكمين، قائلاً:

ـ إن معاوية لم يكن ليضع لهذا الأمر أحداً هو أوثق برأيه ونظره من عمر بن العاص وأنه لا يصلح للقرشي إلاّ مثله، فعليكم بعبد الله بن العباس فارموه به فإن عمراً لا يعقد عقدة إلاّ حلها عبد الله، ولا يحل عقدة إلاّ عقدها، ولا يبرم أمراً إلاّ نقضه ولا ينقض أمراً إلاّ أبرمه[٢].

إلاّ أن خطوط النفاق الجاهلية وعلى رأسها الأشعث بن قيس أصرّ ـ وبدافع قبلي مقيت ـ إلاّ أن يوجه ضربة للإسلام قائلاً:

ـ لا والله لا يحكم فينا مضريان حتى تقوم الساعة، ولكن اجعل رجلاً من أهل اليمن إذا جعلوا رجلاً من مضر!!.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام :إني أخاف أن يَخدع يمنيَّكم فإن عمراً ليس من الله في شيء إذا كان له في أمر هوى.

---

(١) بحار الأنوار ٣٢/ ٢٧١

(٢) شرح النهج ٢/ ٢٢٩

إلاّ أن الأشعث قال: والله لأن يحكما ببعض ما نكره وأحدهما من أهل اليمن أحب إلينا من أن يكون بعض ما نحب في حكمهما وهما مضريان..

وهكذا جاء أبو موسى الأشعري ولا ولاء عنده لأمير المؤمنين عليه السلام. إضافة إلى كونه (قريب القعر، كليل المدية) كما قال الأحنف بن قيس، بعبارة أخرى كان شديد السذاجة.

وبالرغم من النصائح التفصيلية التي وجهت لأبي موسى الأشعري، حول كيفية لقائه وكلامه مع ابن العاص، إلاّ أن الطبع غلب التطبع.. فقد جاء إليه ابن عباس وقال له وكان عنده وجوه الناس وأشرافهم:

ـ يا أبا موسى إن الناس لم يرضوا بك ولم يجتمعوا عليك لفضل لا تشارك فيه وما أكثر أشباهك من المهاجرين والأنصار المتقدمين قبلك!! ولكن أهل العراق أبوا إلاّ أن يكون الحكم يمانياً ورأوا أن معظم أهل الشام يمان، وأيمّ الله إني لأظن ذلك شراً لك ولنا فإنه قد ضم إليك داهية العرب وليس في معاوية خلة يستحق بها الخلافة، فان تقذف بحقك على باطله تدرك حاجتك منه، وأن يطمع باطله في حقك يدرك حاجته منك. واعلم يا أبا موسى أن معاوية طليق الإسلام وأن أباه رأس الأحزاب وأنه يدعي الخلافة من غير مشورة ولا بيعة فإن زعم لك أن عمر وعثمان قد استعملاه فلقد صدق، استعمله عمر وهو الوالي عليه، بمنزلة الطبيب يحميه ما يشتهي ويوجره ما يكره ثم استعمله عثمان برأي عمر، وما أكثر من استعملا ممن لم يدع الخلافة، واعلم أن لعمرو مع كل شيء يسرك خبيثاً يسوءك، ومهما نسيت فلا تنس أن علياً بايعه القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان وأنها بيعة هدى وأنه لم يقاتل إلاّ

العاصين والناكثين[١].

وجاء الأحنف ونصحه، وهكذا، إلاّ أن الرسالة تقرأ من عنوانها، بل لقد توقع الأكثر نتيجة المباحثات قبل وقوعها، مثل أيمن بن خزيم الأسدي وكان معتزلاً، فقد أنشأ:

لو كان للقوم رأي يعصمون به

من الضلال رموكم بابن عباس

لله درّ أبيه أيما رجل

ما مثله لفصال الخطب في الناس

لكن رموكم بشيخ من ذوي يمن

لايهتدي ضرب أخماس لأسداس

أن يخل عمرو به يقذفه في لجج

يهوي به النجم تيساً بين أتياس

انتهت مهزلة (التحكيم) بغباء الأشعري، إلى خلع الخليفة الشرعي، بواسطته بينما أثبت عمرو بن العاص ولاية معاوية!! وانتهت أيضاً إلى بروز فتنة الخوارج الذين شهروا السلاح هذه المرة في وجه أمير المؤمنين مطالبين باستمرار الحرب بعد أن شهروه في وجهه قبلئذ! بسبب استمرار الحرب! وما أقسى أن تكون السيوف مصلّتة بيد الشيوخ والقراء ذوي اللحى الصفراء، والعقول السوداء!!.

---

(١) شرح النهج ٢/ ٢٤٦

وهكذا.. خرجوا كما قال رسول الله ﷺ يخرج ناس يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ينظر أحدكم في نصله فلا يرى شيئاً فينظر في قذذه (ريش السهم) فلا يرى شيئاً، سبق الفرث والدم، يصلى بقتالهم أولى الطائفتين بالله.

وللمرة الثالثة يبعث أمير المؤمنين سفيره وتلميذه ابن عباس، إلى هؤلاء قائلاً: لا تخاصمهم بالقرآن فإن القرآن حمّال ذو وجوه. تقول ويقولون ولكن حاججهم بالسنة فإنهم لن يجدوا عنها محيصا[1].

وعندما يستشهد أمير المؤمنين! بضربة سيف مسموم كقلب حامله، ولكيلا يفقد المصاب رشد الناس، يقوم ابن عباس في وسط الجمع داعياً إلى بيعة الإمام الحسن! فهو (ابن نبيكم ووصي إمامكم).

وعندما يصدر معاوية الأوامر لأجهزته الدعائية من قصاصين، ووعاظ،سلاطين ومحدثين كذبة، أن يقوموا باغتيال شخصية أمير المؤمنين بعد أن اغتال الخوارج شخصه، عبر منع التحديث بفضائل علي ومناقبه، ووضع الأحاديث الكاذبة على لسان الرسول في ذم علي!.. يستنفر ابن عباس كل طاقته لما يراه عدواناً على الله ورسوله..

فها هو يمر بعد أن كف بصره على جماعة جلسوا يسبون أمير المؤمنين، إذ كان سبّه في العهد الأموي يعتبر فاتحة المجلس والختام.. وكان سعيد بن جبير تلميذه يقوده، فلما سمعهم قال لسعيد: ردني إليهم! فلما رجع إليهم قال:

ـ أيكم السابّ لله عز وجل؟!.

(١) نهج البلاغة رقم/ ٧٧

قالوا: سبحان الله ما فينا أحد يسب الله!.

فقال: أيكم الساب لرسول الله؟.

قالوا: ما فينا من يسب رسول الله!.

فقال: أيكم الساب لعلي بن أبي طالب؟!.

قالوا: أما هذا فكان منه شيء..

فقال: شهدت على رسول الله بما سمعته يقول لعلي بن أبي طالب:

يا على من سبّك فقد سبّني ومن سبّني فقد سبّ الله ومن سبّ الله فقد أكبّه على منخريه في النار [(١)].

وعندما يسأله معاوية بعد أن استقرّ له الأمر، عن رأيه في علي بن أبي طالب... يقول:

علي أبو الحسن.. صلوات الله عليه، كان والله علم الهدى وكهف التقى ومحل الحجى ومحتد الندى وطود النهى، وعلم الورى، ونوراً في ظلمة الدجى، وداعياً إلى المحجة العظمى ومستمسكاً بالعروة الوثقى وسامياً إلى المجد الأعلى، وقائد الدين والتقى وسيد من تقمص وارتدى، بعل بنت المصطفى وأفضل من صام وصلّى وأفخر من ضحك وبكى، صاحب القبلتين، فهل يساويه مخلوق كان أو يكون؟ كان كالأسد مقاتلاً، ولهم في الحرب حاملاً، على مبغضيه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين إلى يوم التناد[(٢)].

لقد عيّن بشكل واضح مسيره، فعرف صديقه وعرف عدوّه، وكانت تلك المعرفة عميقة، لذلك كان مستعدا في أي وقت

---

(١) تنقيح المقال ٢/ ١٩١

(٢) عوالم العلوم ١٦/ ٢٤٥

لتوضيحها لغيره ولم يكن يخاف ـ كغيره ـ سطوة الحكم، لـذلك مـا كان يخلو مجلس يحضره وفيه أحد من مؤيدي الحكم الأموي إلاّ وكان يتحول إلى مجلس مناظره وكنا قد أشرنا إلى أن هذه المناظرات لم تكن ترفاً، بل كانت تدعيماً لنظرية، وإبطالاً لأخرى، في وقت كـان يحـرك المسلمين الفكر، فحتى الذين لم يكونوا يمتلكون نظريـة حقـة، كـانوا يحاولون أن يدعموا باطلهم بأدلة، يخفى بطلانها على العامة.

وإذا كان عمرو بن العاص قد باع دينه في سبيل دنيا زائلة، فقد رتع فيها حتى شبع، وآن الأوان لكي يتقيأ مـا بلـع، فقـد وصـل بـه العمر نهايته، وها هو في مرضه الأخير، وابـن عبـاس يـدخل عليـه، مسلماً:

ـ كيف أصبحت يا أبا عبد الله؟!.

فقال عمرو: أصبحت وقد أصلحت من دنياي قليلاً وأفـسدت من ديني كثيراً فلو كان الذي أصـلحت هـو الـذي أفـسدت والـذي أفسدت هو الذي أصلحت، فزت. ولو كان ينفعني أن أطلب طلبت ولو كان ينجيني الهرب هربت، فقد صـرت كـالمنخنق بـين الـسماء والأرض لا أرقى بيدين ولا أهبط برجلين فعظني بعظة أنتفع بهـا يـا ابن أخي!!.

الغريب أن الإنسان عندما يمد لنفسه في حبل الغـي لا ينتبـه إلاّ حين يكون الوقت قد انتهى، وقطار التوبة قد غادر المحطـة.. وهـؤلاء الذين يفكرون أنهم يستطيعون خداع الله، فيقومـون بكـل المعاصـي ويرتبطون في شتى الانحرافات، على أمل التوبة فيما بعد يغفلون عـن الآية المباركة ﴿وَلَيْسَت التَّوْبَـةُ للَّـذينَ يَعْمَلُـونَ الـسَّيِّئَات حَتَّـى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْـتُ الآنَ وَلاَ الَّـذِينَ يَمُوتُـونَ وَهُـمْ

كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (١)

لذلك قال ابن عباس له: هيهات أبا عبد الله لقد صار ابن أخيك أخاك ولا تشاء أن تبلى إلاّ بليت. كيف يؤمر برحيل من هو مقيم؟!.

فقال عمرو: على حينها من حين، ابن بضع وثمانين تقنطني من رحمة ربي اللهم إن ابن عباس يقنطني من رحمتك فخذ مني حتى ترضى!!.

فقال ابن عباس: هيهات أبا عبد الله أخذت جديداً وتعطي خلقاً!!.

قال عمرو: مالي ولك يا ابن عباس ما أرسل كلمة إلاّ أرسلت نقيضها! (٢).

وذهب عمرو بن العاص إلى خالقه مداناً وتبعه معاوية، ولم ينفعهما مكرهما وكيدهما في تجنب هذا المصير.. وجاء بعد معاوية ابنه يزيد، ليصبح (خليفة المسلمين)!!، وليقترف من الجرائم في ثلاث سنين ما لم يستطعه غيره في ثلاثين سنة.. وثار الإمام الحسين عليه السلام لطلب الإصلاح.. وانتهز ابن الزبير الفرصة فقد قام بعد شهادة الإمام الحسين ! ضد يزيد، وخلع بيعته ودعا إلى نفسه داعياً ابن عباس لما يمثله ابن عباس من موقع قوي بين أصحاب الرسول وأمير المؤمنين!. وابن عباس الذي عاصر صراعات الناكثين والبغاة على أمير المؤمنين، كان يجد أن مسجّر تلك النار كان عبد الله بن الزبير، وإن نسي أشياء كثيرة فلا يكاد ينسى كلام علي عليه السلام في حق ابن الزبير: مازال الزبير منا أهل البيت حتى نشأ ابنه الميشوم

(١)سورة النساء: ١٨

(٢) شرح النهج ٢/ ٣٢٤

عبد الله.. لذلك رفض ابن عباس بيعة ابن الزبير بصورة قاطعة..

سمع يزيد بن معاوية وهو في الشام بموقف ابن عباس من الزبير، فظن أن هذا الموقف يعني التمسك ببيعته، وأراد أن يستفيد من الفرصة فكتب لابن عباس:

أما بعد فقد بلغني أن الملحد ابن الزبير دعاك إلى بيعته وأنك اعتصمت ببيعتنا وفاء منك لنا. فجزاك الله من ذي رحم خير ما يجزي الواصلين لأرحامهم الموفين بعهودهم فما أنس من الأشياء فلمست بناس برك وتعجيل صلتك بالذي أنت له أهل، فانظر من طلع عليك من الآفاق ممن سحرهم ابن الزبير بلسانه فأعلمهم بحاله فإنهم منك أسمع ولك أطوع منهم للمحل..

ولم يكن ابن عباس بالغِرِّ الذي يُخدع بكتاب، أو يزل بعطاء!! إنه الرجل الذي أفنى عمره في جهاد المحلين والظالمين، وقد عين مسيره منذ ذلك اليوم، فكتب إلى يزيد جواباً ساخناً:

أما بعد فقد جاءني كتابك.. فأما تركي بيعة ابن الزبير فو الله ما أرجو بذلك برك ولا حمدك ولكن الله بالذي أنوي عليم. وزعمت أنك لست بناس بري فاحبس أيها الإنسان عني برك فإني حابس عنك بري، وسألت أن أحبب الناس إليك من سرور ولا كرامة.. كيف وقد قتلت حسيناً وفتيان عبد المطلب مصابيح الهدى ونجوم الأعلام غادرتهم خيولك بأمرك في صعيد واحد مرملين بالدماء مسلوبين بالعراء مقتولين بالظلماء لا مكنفين ولا موسدين تسفي عليهم الرياح وينشىء بهم عرج البطاح، حتى أتاح الله بقوم لم يشركوا في دمائهم كفنوهم وأجنوهم وبي وبهم عززت وجلست مجلسك الذي جلست، فما أنسى من الأشياء إطرادك حسيناً من حرم رسول الله ﷺ إلى حرم الله وتسييرك الخيول إليه فمازلت بذلك حتى أشخصته إلى العراق فخرج خائفاً يترقب فزالت به

خيلك عداوة منك لله ولرسوله ولأهل بيته الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، فطلب إليكم الموادعة وسألكم الرجعة فاغتنمتم قلة أنصاره واستئصال أهل بيته وتعاونتم عليه كأنكم قتلتم أهل بيت من الشرك والكفر، فلا شيء أعجب عندي من طلبك ودي وقد قتلت ولد أبي وسيفك يقطر من دمي وأنت أحد ثأري ولا يعجبك إن ظفرت بنا اليوم فلنظفرن بك يوماً والسلام..

وبقدر ما يندم الخاطئون ساعة فراق الدنيا، إذ تزاح عن عيونهم حجب الغفلة وعن بصائرهم سكر الشهوة فيكتشفون في أي درك كانوا يتردّون، فإن أصحاب اليقين، والسائرين على الصراط المستقيم يرقبون قنطرة العبور إلى منازل السعداء في الآخرة، نظرة شوق وأمل.. ولا فرق عند هؤلاء بين أن يقتلوا وسط الملاحم، وميادين الحروب، أو يأتيهم الموت على فراشهم.. ماداموا على طريق الله، وضمن منهجه. ولسان حالهم.

ولست أبالي حين أقتل مسلماً
على أي جنب كان في الله مصرعي

وهكذا كان ابن عباس، فقد عاش في حياته على بصيرة من أمره، مقتدياً بالصالحين ومتبعاً للأئمة الطاهرين، إلى أن قربت أيامه الأخيرة..

فها هو مسجى على فراشٍ مرضه.. وقد أغمي عليه في البيت، ثم أفاق، وتوجه إلى جلسائه قائلاً:

إن خليلي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: إني سأهاجر هجرتين وإني سأخرج من هجرتي، فهاجرت هجرة مع رسول الله وهجرة مع علي عليه السلام وإني سأعمى فعميت، وإني سأغرق فأصابني حكة فطرحني أهلي في البحر فغفلوا عني فغرقت ثم استخرجوني بعد.

وأمرني أن أبرأ من خمسة من الناكثين وهم أصحاب الجمل، ومن القاسطين وهم أصحاب الشام ومن الخوارج وهم أهل النهروان..

ثم قال: اللهم إني أحيا على ما حيا به علي بن أبي طالب وأموت على ما مات عليه علي بن أبي طالب.

وبقدر ما كان ذلك معجزة للرسول ﷺ حيث يقتحم أسرار الغيب مخبراً عن المستقبل فقد كان شهادة استقامة لابن عباس.

كميل بن زياد النخعي

شهيداً بيد الحجاج الثقفي سنة ٨٣هـ

قال كميل: أخذ بيدي أمير المؤمنين عليه السلام فـأخرجني إلى ناحيـة الجبان (الصحراء) فلما أصحرنا جلس فتنفس الصعداء ثم قال:

« يا كميل بن زياد: إن هـذه القلـوب أوعيـة فخيرهـا أوعاهـا فاحفظ عني ما أقول لك:

يَا كُمَيْل بْن زِيَاد، إنَّ هـذه الْقُلُـوبَ أَوْعِيَـةٌ، فَخَيْرُهَـا أَوْعَاهَـا، فَاحْفَظْ عَنِّي مَا أَقُولُ لَكَ: النَّاسُ ثَلاَثَةٌ: فَعَالِمٌ رَبَّانِيٌّ، وَمُـتَعَلِّمٌ عَلَـى سَبِيلِ نَجَاة، وَهَمَجٌ رَعَاعٌ، أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعق، يَميلُونَ مَعَ كُلِّ رِيح، لَـمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ، وَلَمْ يَلْجَؤُوا إِلَى رُكْن وَثِيق. يَا كُمَيْلُ، الْعِلْـمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ: الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ وَأَنْتَ تَحْرُسُ المَالَ، والْمَـالُ تَنْقُـصُهُ النَّفَقَةُ، وَالْعِلْمُ يَزْكُو عَلَى الإنفاق، وَصَنِيعُ الْمَالِ يَزُولُ بِزَوَالِهِ.

يَا كُمَيْل بْن زِيَاد، مَعْرِفَةُ الْعِلْمِ دِينٌ يُدَانُ بِه، بِه يَكْسِبُ الإنـسان الطَّاعَةَ فِي حَيَاتِه، وَجَمِيـلَ الأحدوثـة بَعْـدَ وَفَاتـه، وَالْعِلْـمُ حَـاكِمٌ، وَالْمَالُ مَحْكُومٌ عَلَيْه. يَا كُمَيْل بْن زياد، هَلَكَ خُـزَّانُ الأمـوال وَهُـمْ أَحْيَاءٌ، وَالْعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ: أَعْيَـانُهُمْ مَفْقُودَةٌ،أَمْثَـالُهُمْ فِـي الْقُلُوبِ مَوْجُودَةٌ. هَا إِنَّ هَا هُنَا لَعِلْماً جَمّاً (وَأَشَـارَ إِلى صَـدره) لَـوْ أَصَبْتُ لَهُ حَمَلَةً! بَلَى أَصَبْتُ لَقِناً غَيْرَ مَأْمُون عَلَيْـه، مُـسْتَعْمِلاً آلَـةَ الدِّينِ لِلدُّنْيَا، وَمُـسْتَظْهِراً بِـنِعَمِ اللهِ عَلَـى عِبـاده، وَبِحُجَجِـه عَلَـى أَوْلِيَائِهِ، أَوْ مُنْقَاداً لِحَمَلَةِ الْحَقِّ، لاَ بَـصِيرَةَ لَـهُ فِـي أَحْنَائِـه، يَنْقَـدِحُ الشَّكُّ فِي قَلْبِهِ لأول عَارِض مِنْ شُبْهَة. أَلاَ لاَ ذَا وَلاَ ذَاكَ! أَوْ مَنْهُومـاً

بِاللَّذَّة، سَلسَ الْقِيَاد للشَّهْوَة، أَوْ مُغْرَماً بِالْجَمْع وَالاْدِّخَار، لَيْسَا مِنْ رُعَاة الدِّين فِي شَيْء، أَقْرَبُ شَيْء شَبَهاً بِهِمَا الأنعام السَّائِمَةُ! كَذلِكَ يَمُوتُ الْعِلْمُ بِمَوْت حَامليه. اللَّهُمَّ بَلَى! لاَ تَخْلُو الأرض مِنْ قَائم لله بِحُجَّة، إِمَّا ظَاهِراً مَشْهُوراً، أَوْ خَائِفاً مَغْمُوراً، لِئَلاَّ تَبْطُلَ حُجَجُ الله وَبَيِّنَاتُهُ. وكَمْ ذَا وَأَيْنَ أُولئكَ؟ أُولئكَ ـ وَاللهِ ـ الأقلون عَدَداً، وَالأَعْظَمُونَ قَدْراً، يَحْفَظُ اللهُ بِهِمْ حُجَجَهُ وَبَيِّنَاتِه، حَتَّى يُودِعُوهَا نُظَرَاءَهُمْ، وَيَزْرَعُوهَا فِي قُلُوب أَشْبَاهِهِمْ، هَجَمَ بِهِمُ الْعِلْمُ عَلَى حَقيقَة الْبَصِيرَة، وَبَاشَرُوا رُوحَ الْيَقِين، وَاسْتَلاَنُوا مَا اسْتَوْعَرَهُ الْمُتْرَفُونَ، وَأَنِسُوا بِمَا اسْتَوْحَشَ مِنْهُ الْجَاهِلُونَ، وَصَحِبُوا الدُّنْيَا بِأَبْدَان أَرْوَاحُهَا مُعَلَّقَةٌ بِالْمَحَلِّ الأَعْلَى، أُولئكَ خُلَفَاءُ الله فِي أَرْضه، وَالدُّعَاةُ إِلَى دِينِهِ، آه آهِ شَوْقاً إِلَى رُؤْيَتِهِمْ! انْصَرِفْ يَا كُمَيْلُ إِذَا شِئْتَ».

❁❁❁

« إلهي وَرَبِّي مَنْ لِي غَيْرُكَ أَسأَلُهُ كَشْفَ ضُرِّي وَالنَّظَرَ فِي أَمْرِي. إلهي وَمَوْلايَ أَجْرَيْتَ عَلَيَّ حُكْماً اتَّبَعْتُ فيه هَوى نَفْسي وَلَمْ أَحْتَرِسْ فيه مِنْ تَزْيين عَدُوِّي، فَغَرَّني بما أَهْوى وَأَسْعَدَهُ عَلى ذلكَ القَضاءُ فَتَجاوَزْتُ بما جَرى عَلَيَّ مِنْ ذَلكَ بَعْضَ حُدُودكَ، وَخالَفْتُ بَعْضَ أَوامِركَ، فَلَكَ الحَمْدُ عَلَيَّ في جَميع ذلكَ ولا حُجَّةَ لي فيما جَرى عَلَيَّ فيه قَضاؤُكَ، وَأَلْزَمَني حُكْمُكَ وَبَلاؤُكَ، وَقَدْ أَتَيْتُكَ يا إلهي بَعْدَ تَقْصيري وَإسْرافي عَلى نَفْسي مُعْتَذِراً نادماً مُنْكَسِراً مُسْتَقيلاً مُسْتَغْفِراً مُنيباً مُقِرّاً مُذْعِنا مُعْتَرِفاً، لا أَجِدُ مَفَرّاً ممّا كانَ منّي وَلا مَفْزَعاً أَتَوَجَّهُ إلَيْهِ في أَمْري، غَيْرَ قَبُولكَ عُذْري وَإدْخالكَ إيّايَ في سَعَة رَحْمَتكَ. اللّهُمَّ فَاقْبَلْ عُذْري، وَارْحَمْ شِدَّةَ ضُرِّي، وَفُكَّني مِنْ شَدِّ وَثاقي، يا رَبِّ ارْحَمْ ضَعْفَ بَدَني، وَرِقَّةَ جِلْدي، وَدِقَّةَ عَظْمي، يا مَنْ بَدَأَ خَلْق وَذِكْري وَتَرْبِيَتي وَبِرِّي وَتَغْذِيَتي، هَبْني لابْتداءِ كَرَمكَ وَسالِف بِرِّكَ بي، ياإلهي وَسَيِّدي وَرَبّي، أَتُراكَ مُعَذِّبي

بنارِكَ بَعْدَ تَوْحيدكَ وبَعْدَما انْطَوى عَلَيْهِ قَلْبِي مِنْ مَعْرِفَتكَ، ولَهجَ بِهِ لِساني مِنْ ذِكْرِكَ، واعْتَقَدَهُ ضَميري مِنْ حُبِّكَ وَبَعْدَ صِدْقِ اعْترافِي وَدُعائِي خاضِعاً لرُبُوبيَّتكَ، هَيْهاتَ! أَنْتَ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ تُضَيِّعَ مَنْ رَبَّيْتَهُ، أَوْ تُبْعِدَ مَنْ أَدْنَيْتَهُ، أَوْ تُشَرِّدَ مَنْ آوَيْتَهُ، أَوْ تُسَلِّمَ إِلى البَلاءِ مَنْ كَفَيْتَهُ وَرَحِمْتَهُ، ولَيْتَ شِعْري ياسَيِّدي وإِلهي وَمَوْلايَ! أَتُسَلِّطُ النّارَ عَلى وُجُوهٍ خَرَّتْ لعَظَمَتكَ ساجِدَةً، وَعَلى أَلْسُنٍ نَطَقَتْ بتَوْحيدكَ صادِقَةً وَبِشُكْرِكَ مادِحَةً، وَعَلى قُلُوبٍ اعتَرَفَتْ بإِلهيَّتكَ مُحَقِّقَةً، وَعَلى ضَمائِرَ حَوَتْ مِنَ العِلْمِ بِكَ حَتّى صارَتْ خاشِعَةً، وَعَلى جَوارِحَ سَعَتْ إِلى أَوْطانِ تَعَبُّدِكَ طائِعَةً، وأَشارَتْ باسْتِغْفارِكَ مُذْعِنَةً؟! ما هكَذا الظَنُّ بِكَ وَلا أُخْبِرْنا بِفَضْلِكَ عَنْكَ ياكَريمُ يارَبِّ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ ضَعْفي عَنْ قَليلٍ مِنْ بَلاءِ الدُّنْيا وَعُقُوباتِها، وَما يَجْري فيها مِنَ المَكارِهِ عَلى أَهْلِها، عَلى أَنَّ ذلكَ بَلاءٌ وَمَكْرُوهٌ قَليلٌ مَكْثُهُ، يَسيرٌ بَقاؤُهُ قَصيرٌ مُدَّتُهُ، فَكَيْفَ احْتِمالي لِبَلاءِ الآخرَةِ وَجَليلِ وُقُوعِ المَكارِهِ فيها، وَهُوَ بَلاءٌ تَطُولُ مُدَّتُهُ وَيَدُومُ مَقامُهُ وَلا يُخَفَّفُ عَنْ أَهْلِهِ لأَنَّهُ لا يَكُونُ إِلاّ عَنْ غَضَبِكَ وَانْتِقامِكَ وَسَخَطِكَ؟! وَهذا ما لا تَقُومُ لَهُ السَّماواتُ وَالأَرْضُ، يا سَيِّدي فَكَيْفَ لي وأَنا عَبْدُكَ الضَّعيفُ الذَّليلُ الحَقيرُ المِسْكينُ المُسْتَكينُ، ...»

❊❊❊

وخرج أمير المؤمنين عليه السلام ذات ليلة من مسجد الكوفة وقد مضى من الليل ربعه ومعه كميل بن زياد، فوصلا في الطريق إلى باب رجل[1] يتلو القران في ذلك الوقت ويقرأ قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ...﴾.

---

(١) هناك رواية أخرى تفيد أن الحادثة قد وقعت في إحدى ليالي معركة صفين

بصوت شجي حزين فاستحسن كميل ذلك في باطنه وأعجبه حال الرجل من غير أن يقول شيئا فالتفت أمير المؤمنين عليه السلام إليه وقال يا كميل لا يعجبك طنطنة الرجل إنه من أهل النار.. سأنبئك فيما بعد.

وتحيّر كميل لمكاشفة الإمام له على ما في باطنه ولشهادته بدخول ذلك الرجل النار مع كونه في هذا الوقت وعلى تلك الحالة الحسنة من قراءة القرآن ومضت مدة طويلة إلى أن آل حال الخوارج إلى ما آل وقاتلهم أمير المؤمنين عليه السلام في النهروان.

وانتهت المعركة تماماً كما أخبر عنها الإمام قبل نشوبها حيث قال: مصارعهم دون النطفة (النهر) والله لا يهلك منكم عشرة ولا ينجو منهم عشرة..

وصافحت تلك الجباه السود تراب الأرض في حالة البغي على الإمام الشرعي، وجاء أمير المؤمنين عليه السلام ليتفقد القتلى، ومعه كميل أيضاً فوقف على جثة رجل، وأشار إلى رأسه بذباب سيفه، وقال:

يا كميل أمّن هو قانت آناء الليل... .

أي هذا هو الرجل الذي أعجبك حاله تلك الليلة، وقراءته للقران!!.

لم يلتق كميل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولكنه تتلمذ على يد علي عليه السلام حتى اختص به.. والمقاطع المتقدمة هي جزء مما كان يلقيه الإمام أثناء تربيته لكميل.. تجد في المقطع الأول منها تحليلاً لحركة المجتمع وأقسامه على ضوء العلم، ثم موقع العلم والعلماء في المنظور الإسلامي قياساً إلى أصحاب المال والمترفين.

ثم يعلمه طريقة المناجاة والحديث مع الله في دعاء من أعظم

الأدعية والذي عرف فيما بعد بدعاء كميل، ويقرأ في ليالي الجمعة، وتشعر وأنت تقرأه بأنفاس أمير المؤمنين ساخنة بين سطوره، وتعرف أي قلب محب لله كان يملكه هذا الرجل، وأي عطف يشتمل عليه تجاه أصحابه حين يعرفهم منازل القرب من خالقهم.

وأخيراً فهو يعلمه وبشكل عملي كيف أن قراءة القرآن من دون وعي قد تكون ضد القرآن و (كم من تال للقرآن والقرآن يلعنه) وأن الاتجاه الذي تحدده ولاية المرء للصالحين هو الذي ينفعه في عاقبة سليمة.

❁❁❁

نلتقي مع أول ظهور لكميل بن زياد في الساحة السياسية الإسلامية في الكوفة ثم في الشام ثم في حمص، ضمن الوفد الذي قدم للخليفة عثمان احتجاجه على والي الكوفة سعيد بن العاص.

ذلك أن سعيداً الذي جاء عوض الوليد بن عقبة، بعد أن شهد على هذا الأخير صلحاء الكوفة وثقاتها بأنه شرب الخمر وجاء إلى صلاة الفجر وصلّى بالناس ثمان ركعات، وتقيأ في المحراب ثم التفت إلى المصلحين، و قال: أزيدكم؟.

جاء سعيد بن العاص، بنفس العقلية ليدير الكوفة والياً عليها من قبل الخليفة عثمان.. وبدأ عهده برفع التقارير والوشايات إلى الخليفة ضد كبار أهلها.. فقد كتب إلى عثمان:

إني لا أملك من الكوفة مع الأشتر وأصحابه الذين يدعون القراء وهم السفهاء شيئاً.

وبدلاً من أن يرسل الخليفة جماعة لتقصي حقيقة الأمر كتب إليه أن يسيرهم إلى الشام، وكان هذا أول (تسفير) جماعي لعدد من المسلمين من أرضهم.. وانطلق كميل بن زياد النخعي ومعه مالك

الأشتر وزيد وصعصعة ابنا صوحان والحارث الهمداني، وعدد آخر من كبار شيعة أمير المؤمنين مهجّرين إلى الشام.

لم يستطع معاوية أن يتحمل وجود هذه الجماعة في الشام بعد أن كانت له معهم مجالس ومناظرات وجدهم فيها وعاة عارفين ورجالاً شجعاناً، وسمع أن قوماً من أهل دمشق يجلسون إليهم ويسمعون كلامهم وتلك هي الطامة الكبرى لدى معاوية، فكتب إلى عثمان: أنه قدم عليّ قوم ليست لهم عقول ولا أديان، أضجرهم العدل! لا يريدون الله بشيء ولا يتكلمون بحجة إنما همهم الفتنة والله مبتليهم وفاضحهم! وليسوا بالذين نخاف نكايتهم وليسوا الأكثر ممن له شعب ونكير، فردهم إلى الكوفة ثم كتب الخليفة لسعيد يأمره بتسييرهم إلى حمص وكان الوالي عليها عبد الرحمان بن خالد بن الوليد وكان هذا ـ بخلاف أخيه المهاجر الذي استشهد فيما بعد مع أمير المؤمنين بصفين ـ شديد الحقد على شيعة أمير المؤمنين وعنيفاً عليهم.

لما وصلوا متعبين إلى حمص، استقبلهم عبد الرحمان بن خالد استقبالاً يليق بمدى حقده عليهم.. فقد جمعهم وقال:

يا بني الشيطان لا مرحباً بكم ولا أهلاً، قد رجع الشيطان محسوراً وأنتم بعد في ضلالكم وغيكم، جزى الله عبد الرحمان إن لم يؤذكم، يا معشر من لا أدري أعرب هم أم عجم! أتراكم تقولون لي ما قلتم لمعاوية؟! أنا ابن خالد بن الوليد. أنا ابن من عجمته العاجمات. أنا ابن فاقئ عين الردة. والله يا ابن صوحان لأطيرن بك طيرة بعيدة المهوى!!.

❋❋❋

تاريخه هذا في المعاناة مع الظالمين من الولاة أهلّه ـ إضافة إلى صفاته الأخرى ـ لكي يكون والياً للإمام علي عليه السلام بعد خلافته

على منطقة هيت، ذلك أنه لا يعرف مرارة الظلم إلاً المظلـوم، فإنها تبقى في لسانه لاذعة تمنعه من ظلم الآخرين عادة.

وبالفعل أصبح كميل والياً لأمير المؤمنين عليه السلام.

وبعد صفين بدأ معاوية بأعمال إرهابية على أطراف مناطق أمير المؤمنين عليه السلام، فإذا كان لا يستطيع الثبـات في ميـدان الحـرب فإنـه يستطيع أن يشن الغارة على المناطق المدنية ويستطيع إرهاب الكبـار والنساء والأطفال!!.

وتـصدى ولاة أمـير المـؤمنين عليه السلام بـالرغم مـن قلـة عـددهم وعددهم لحملات جيش معاوية، فقد واجه كميـل بـن زيـاد، عبـدَ الرحمان بن قباث فقد هاجم بلاد الجزيرة، فـواجههم كميـل وغلـب على عسكرهم وأكثر القتل فيهم.

وفكر كميل أن يتابع حملاته المباغتة والفجائيـة بمـن معـه علـى مواقع معاوية، ربما باعتبار أن أفـضل وسـيلة للـدفاع هـي الهجـوم فاستمر في مهاجمتهم وتتبعهم، لكن هذا بالرغم من فائدته من جهـة إلاّ أنه من جهة أخرى سوف يشغل الوالي عن متابعة شؤون منطقته، لصالح الحملات العـسكرية، إضـافة إلى المـشاكل الـتي سـتنتج عـن الاستمرار في الأعمال العسكرية هذه.

وقد يكون لهذا السبب، وجه الإمام أمير المـؤمنين عليه السلام رسـالة عتاب ونقد وتوجيه لكميـل بالامتنـاع عـن الاسـتمرار في الأعمـال العسكرية خارج دائرته في الوقت الـذي تتعطـل فيـه لهـذا، الـدورة الحياتية في المنطقة التي يشرف عليها..

« أما بعد فإن تضييع المرء ما ولي وتكلفه ما كفي لعجز حاضر ورأي متـبر وأن تعاطيـك الغـارة علـى أهـل قرقيـسيا وتعطيلـك

مسالحك التي وليناك ليس بها من يمنعها ولا يرد الجيش عنها لرأي شعاع »[١].

❀❀❀

وجاء الحجاج الثقفي..

وهو رجل ولع بالدماء منذ طفولته، إذ ينقل أنه لم يقبل ثدي أمه إلاّ بعد أن لطخ له بالدماء.. رجل قال عنه بعض من عاصره (لو جاءت الأمم بجميع مجرميها، وجئنا بالحجاج لغلبناهم)!!.

جاء كنار لم تبق للإسلام أسود ولا أخضر إلاّ وأتت عليه، وكان في الطليعة أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام والحسنين.

وبدأ يبحث عن كميل بن زياد النخعي، الذي توارى واختفى، واستخدم الحجاج وسيلة ضغط، ليحصل عليه، هي أنه منع جميع قومه من (النخع) عطاءهم، وهو المصدر الرئيسي لمعيشة كثير منهم، حتى يأتوه بكميل.

فلما رأى كميل ما حلّ بقومه، وعرف أن الحجاج لا يرعى في مؤمن إلاّ ولا ذمة، قال: أنا شيخ كبير وقد نفذ عمري ولا ينبغي أن أحرم قومي عطاءهم..

دخل كميل إلى قصر الحجاج، الذي ما أن رآه حتى قال: قد كنت أحب أن أجد عليك سبيلاً!!.

فقال كميل: لا تصرف عليّ أنيابك، ولا تهدم عليّ فو الله ما بقي من عمري إلاّ كواسر الغبار فاقض ما أنت قاض فإن الموعد الله وبعد القتل الحساب، ولقد أخبرني أمير المؤمنين عليه السلام إنك قاتلي..

فقال الحجاج: الحجة عليك إذن!!.

---

(١) نهج البلاغة/ ٦١

قال كميل: ذاك إذا كان القضاء إليك[١].

ولأن الطغاة لا يبحثون عن التهمة إلاّ بعد الحكم وتنفيذه فقد تدحرج عنق هذا الرجل العظيم، بينما كان يتلمظ الحجاج بريقه وهو يرى منظر الدماء تغطي شيبة كميل.. وتمتم في سرور: لقد كان فيمن قتل عثمان!!.

(١) رجال الخوئي ١٤/ ١٢٩

أبو الطفيل

عامر بن واثلة الكناني ـ٣ ــ ١٠٠ هـ

طحنّا الفوارس وسط العجاج وسقنا الزعانف سوق النقد
وقلنا عليّ لنا والد ونحن له طاعة كالولد

أبو الطفيل

قال الراوي:

دخل ضرار بن ضمرة على معاوية بعد وفاة علي عليه السلام فقال له: يا ضرار صف لي عليّاً، فقال: اعفني من ذلك. قال: أقسمت عليك لتصفنّه لي.

قال: إن كان لا بد من ذلك، فإنه والله بعيد المدى شديد القوى يقول فصلاً ويحكم عدلاً يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من لسانه يستوحش من الدنيا وزهرتها ويستأنس بالليل ووحشته وكان غزير الدمعة طويل الفكرة يعجبه من اللباس ما خشن ومن الطعام ما جشب وكان فينا كأحدنا، يجيبنا إذا سألناه ويأتينا إذا دعوناه ونحن والله مع تقريبه إيانا وقربنا منه لا نكاد نكلمه هيبة له، يعظم أهل الدين ويعطف على المساكين، لا يطمع القوي في باطله ولا ييأس الضعيف من عدله، وأشهد بالله يا معاوية لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرض الليل سدوله وغارت نجومه قابضاً على لحيته الشريفة يتململ تململ السليم ويبكي بكاء الحزين ويقول: إليك عني يا دنيا غري غيري أبي تعرضت؟ أم إليّ تشوقت، هيهات هيهات لقد

طلقتك ثلاثاً لا رجعة لي فيك فعمرك قصير وخطرك كبير وعيشك حقير.

ثم بكى ضرار.. فسأله معاوية: فكيف حزنك عليه يا ضرار؟!.

قال (ضرار): حزن من ذبح ولدها في حجرها فهي لا ترقا لها دمعة ولا تسكن لها زفرة.

وقال الراوي:

ولما استقام لمعاوية أمره لم يكن أحب إليه من لقاء عامر بن واثلة فلم يزل يكاتبه، ويلطف له حتى أتاه، فلما قدم عليه، سأله عن عرب الجاهلية..

ودخل عليه عمرو بن العاص ونفر معه فقال له معاوية:

ـ تعرفون هذا؟! هذا فارس صفين وشاعرها. هذا خليل أبي الحسن.. ثم قال: يا أبا الطفيل ما بلغ من حبك علياً؟!.

قال (عامر): حب أم موسى لموسى.

قال: فما بلغ من بكائك عليه؟!.

قال: بكاء العجوز الملقاة والشيخ الرقوب و إلى الله أشكو تقصيري..

❁❁❁

عرفوا في الإمام الرسول فاستجابوا لدعوته لما يحييهم ورأوا في علمه سعة جنة الله فتبادروا يتفيئون ظلالها، وينهلون من معين كوثرها، ووجدوا فيه الأب الحاني، والأخ الشفيق، والقائد المظلوم.. فأطاعوه طاعة الولد البار، وأحبوه محبة الأخ ودافعوا عنه في حياته، وبقوا أوفياء له بعد وفاته.

أبو الطفيل، عامر، يولد في عام أحد، ولذلك لم يستطع أن يدرك

أكثر من ثمان سنوات من حياة الرسول صلى الله عليه و آله و سلم، ولم يشارك ـ لصغر سنه ـ في أي موقعة من مواقع الرسول صلى الله عليه و آله و سلم أو غزواته، كذلك لم يلحظ له دور أساسي أو مشاركة هامة في الحياة السياسية آنئذ، إلاّ مع خلافة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلاّ أنه لم يكن بعيداً عن تلك الساحة الصاخبة بالأحداث، فقد كان يراقب من قرب كيف تولى الخليفة الثالث الخلافة إذ أنه كان (بواب) الدار التي اجتمعوا فيها (للشورى)، يقول عن تلك الحادثة راويا مناقشة أمير المؤمنين عليه السلام للحاضرين حول أحقيته بالخلافة، ووصية النبي صلى الله عليه وآله ما يلي:

لما احتضر عمر بن الخطاب جعلها (الخلافة) شورى بين ستة..بين علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وطلحة والزبير، وسعد ابن أبي وقاص وعبد الرحمان بن عوف وعبد الله بن عمر فيمن يشاور ولا يولى.. فلما اجتمعوا أجلسوني على الباب أرد عنهم الناس فقال علي لهم:

ـ لأحتجن اليوم عليكم بما لا يستطيع عربيّكم ولا عجميكم تغيير ذلك، ثم قال: أنشدكم الله أيها النفر جميعا أفيكم أحد وحّد الله قبلي؟! قالوا: لا، قال: فأنشدكم الله هل فيكم أحد له أخ مثل جعفر الطيار في الجنة مع الملائكة؟ قالوا: اللهم لا، قال: فأنشدكم الله أفيكم أحد له عم كحمزة أسد الله وأسد رسوله سيد الشهداء غيري؟ قالوا: اللهم لا.. قال: فأنشدكم الله هل فيكم أحد له زوجة مثل زوجتي فاطمة بنت محمد سيدة نساء أهل الجنة غيري؟ قالوا: اللهم لا.. قال: فأنشدكم الله هل فيكم أحد له سبطان مثل سبطي الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة غيري؟! قالوا: اللهم لا، قال: فهل فيكم أحد ناجى رسول الله مرّات قدم بين يدي نجواه صدقة قبلي؟! قالوا: اللهم لا قال: فأنشدكم الله هل فيكم أحد قال

له رسول الله: من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم والِ من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره، ليبلغ الشاهد الغائب غيري؟ قالوا:اللهم لا [١].

إلاّ أن رياح عبد الرحمان بن عوف لم لكن تعرف غير قبلة صاحبه عثمان، وسفينة (الشورى) تلك لم تكن لتنتهي إلى غير هذا الساحل، وبالفعل فقد (صغا رجل منهم لصفته ومال الآخر لصهره مع من وهن إلى أن قام ثالث القوم نافجاً حضيه بين نثيله ومعتلفه وقام معه بنو أبيه يخضمون مال الله خضمة الإبل نبتة الربيع إلى أن انتكث عليه فتله وأجهز عليه عمله وكبت به بطنته)[٢].

وقام علي عليه السلام بأمر الخلافة، بينما قامت قيامة أصحاب الدنيا ولم تقعد ضد أمير المؤمنين عليه السلام، فكانت الجمل، ثم كانت صفين وتألق أبو الطفيل وهو فارس مضر وحكيمها..

وإذا كانت بعض النفوس لا تزال تعيش عقد العصبيات القبلية، وتراث الجاهلية، فإن ذلك لم يكن ليجد إلى أبي الطفيل طريقاً، بل إنه يحول ذلك الشعور بالذات إلى عمل إيجابي وتنافس في الخير، فقد روى نصر بن مزاحم في كتاب صفين أن عليّاً عليه السلام كان لا يعدل بربيعة أحداً من الناس فشق ذلك على مضر فقال حصين بن المنذر شعراً أغضب فيه مضرَ.

وكان من الممكن أن تتحول هذه الحادثة إلى إسفين في وحدة عسكر أمير المؤمنين عليه السلام في موقع من أحرج المواقع إلاّ أن أبا الطفيل وهو مضري، جاء إلى أمير المؤمنين باقتراح يجنب الموقف سلبيات الفرقة، ويحول العصبية إلى دفع إيجابي وتسابق في الجهاد قال:

---

(١) الغدير ١/ ١٦٠

(٢) نهج البلاغة خ ٣

يا أمير المؤمنين إنّا والله لا نحسد قوماً خصهم الله منك بخير أن حمدوه وشكروه، وأن هذا الحي من ربيعة قد ظنوا أنهم أولى بك منا وأنك لهم دوننا، فأعفهم عن القتال أياماً واجعل لكل امرئ منّا يوماً نقاتل فيه فإنا إن اجتمعنا اشتبه عليك بلاؤنا (جهادنا).

كان الاقتراح الذي قدمه أبو الطفيل حسناً فهو إضافة إلى كونه يرفع (حالة التأزم) التي كانت على وشك البروز بين مقاتلي أمير المؤمنين من ربيعة ومضر، ويجعل التنافس بينهم على عدوهم لا في داخلهم، فهو يوفر فرصة للراحة وتجديد القوى لكل فئة، إذ بينما تقاتل فئة تستريح أخرى..

لذلك أجابه أمير المؤمنين عليه السلام قائلاً: أعطيتم ما سألتم وذلك يوم الأربعاء، وأمر ربيعة أن تكف عن القتال وكانت بإزاء اليمن من صفوف أهل الشام فغدا أبو الطفيل وقومه من كنانة (مضر) يوم الخميس فتقدم أمام الخيل وهو يقول: طاعنوا وضاربوا ثم حمل وهو يقول:

قد صابرت في حربها كنانة	والله يجزيها به جنانه
من أفرغ الصبر عليه زانه	أو غلب الجبن عليه شانه
أو كفر الله فقد أهانه	غداً يعض من عصى بنانه

فاقتتلوا قتالاً شديداً ثم انصرف أبو الطفيل إلى علي عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين نبأتنا أن أشرف القتل الشهادة وأحظى الأمر الصبر وقد والله صبرنا حتى أصبنا فقتيلنا شهيد وحيّنا ثائر فاطلب بمن بقي ثأر من مضى، فإنا وإن كنا قد ذهب صفونا وبقي كدرنا فإن لنا ديناً لا يميل به الهوى ويقيناً لا يزحم الشبهة.. فأثنى عليه علي خيراً.. وهكذا قاتلت بقية القبائل في الأيام الأخرى.



وكان معاوية يستدعي أصحاب أمير المؤمنين بعد شهادته، خصوصاً البارزين فيهم ليناظرهم، و (يغير) قناعاتهم، كما تصور.. فاستدعى أبا الطفيل، وكان في مجلس معاوية عدد من أصحابه قد حضروا يستهزئون بأبي الطفيل! فلما استقر قال معاوية: هذا عمرو بن العاص السهمي وهذا مروان بن الحكم الأموي، وهذا عبد الرحمان ابن أم الحكم السفياني وهذا عتبة ابن أبي سفيان الأموي.

فقال أبو الطفيل: نعم يا معاوية نطقوا بغير ألسنتهم فتكلموا على غير ذلك.

قال معاوية: وكيف ذلك؟!.

قال: أما عمرو الأبتر الشاني لنبي الله صلى الله عليه وآله وسلم ولولي الله فأنطقته مصر وأنطقت الحجاز مروان الوزغ طريد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعبد الرحمان أنطقته أم الحكم فلا جواب لمن لا حياء له دنيا ولا ديناً وقد وهبناه لها، وأما أخوك عتبة فإنه ممن لا يرجى ولا يخشى ولا يضر ولا ينفع، وابن أبي سرح لقد طالما كاد الله ورسوله ووليّه وصد عن سبيله وبغاها عوجاً فويل للقاسية قلوبهم، وأنطقت سعيداً مكة.

ثم قال لعمرو: أكفراً بعد إيمان؟! ونقضاً بعد توكيد وأنا من الحكمين بريء ومنكم براء..

❁❁❁

و إذا كان العمر قد امتد بأبي الطفيل، حتى قارب المئة فقد أتيح له أن يشهد كيف استمرت الحالة الإسلامية بالانحدار كلما امتد الزمان، تماماً كضلعي الزاوية يبدءان من نقطة ثم يبتعدان عن بعضهما وكلما امتدا زادا تباعداً وتنافراً.. وهكذا أصبح الناس يترحمون على عهد معاوية بعد أن ابتلوا بعهد الحجاج الثقفي.. إذ أصبح حتى الغزو الذي كان يفر إليه الناس طمعاً في النجاة من ظلم الحاكم، أصبح في عهد الحجاج مقصلة يوجه إليها كل من لا يرضاه،

فمن لم يمت بسيفه في العراق قضى بسيف عدوه في الديلم، أو هلك عطشاً في صحاري الأفغان.. وكان لسان الحجاج في تلك البعوث التي يرسلها: لا أبالي أيهما قتل صاحبه. لذلك فإن الحجاج لما فني الجيش الذي أرسله إلى بلاد رتبيل ولم ينج منه إلاّ القليل، جهز جيشاً آخر وندب إليه زعماء العرب وقادهم، وعهد بقيادته إلى أحد ألدّ أعدائه وهو عبد الرحمان بن الأشعث.

ومع أن الجيش هذا بلغ غاياته من الفتح والنصر إلاّ إن غايات الحجاج لم تتحقق في فناء قادة العرب الذين كانوا في الجيش وكان يخشى من عودهم سالمين.. لذلك كتب إلى عبد الرحمان أن يتوغل في أراضي العدو.. وعقد عبد الرحمان الذي لم تكن تخفى عليه أهداف الحجاج مؤتمراً عاماً للجيش، وخطب فيهم، وكان مما قال:.. وقد كتبت إلى أميركم الحجاج فجاءني منه كتاب يعجّزني و يضعفني و يأمرني بتعجيل الوغول بكم في أرض العدو وهي البلاد التي هلك فيها إخوانكم بالأمس و إنما أنا رجل منكم أمضي إذا مضيتم و أبى إذا أبيتم.

فقام أبو الطفيل و كان أول متكلم، فقال بعد أن حمد الله و أثنى عليه..أما بعد فإن الحجاج والله ما يرى بكم إلا ما رأى القائل الأول إذ قال لأخيه احمل عبدك على الفرس فإن هلك هلك وإن نجا فلك، إن الحجاج ما يبالي أن يخاطر بكم فيقمعكم في بلاد كثيرة اللهوب واللصوب فإن ظفرتم وغنمتم أكل البلاد وحاز المال وكان ذلك زيادة في سلطانه وإن ظفر عدوكم كنتم أنتم الأعداء البغضاء الذين لا يبالي عنتهم ولا يبقي عليهم.. اخلعوا عدوّ الحجاج[1].

وصافحت هذه الخطبة أفئدة المقاتلين فصاحوا بأجمعهم: خلعنا

---

(١) تاريخ الطبري ٥/ ١٤٧

عدوّ الله!!.

وفي المعركة التي حدثت بين عبد الرحمان وجيشه مع الحجاج وعسكره في منطقة الزاوية بالبصرة، قتل الطفيل بن عامر.

❁❁❁

ورغم تمادي الحكام في الظلم، على امتداد السنين التي عاشها أبو الطفيل عامر بن واثلة الكناني، فإنه يعيش بأمل دائم.. هو دولة الحق الكريمة التي يعز فيها الإسلام وينعم فيها المسلم.

وإن لأهل الحق لا شك دولة على الناس إياها رجى وأرقب

ثم قال: أنا والله ممن يرجى ويرقب [1].

---

(١) تنقيح المقال ٢/ ١١٨

نساء حول الإمام الحسن عليه السلام

قنواء بنت رُشيد الهجري

نتاج تربية الصابرين

﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ۞ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْأِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾[1].

نموذجان يتكرران في صفحات التاريخ.. في درجات مختلفة من الشدة والضعف، نموذج يسبق إلى الرشد قبل زمان الأشد، وقبل الأربعين، فتراه وهو في مقتبل العمر ناضجا حكيما سيرته على هدي الأنبياء وصورته صورة العلماء

يعين أبويه على الهدى، ويهيئ لهما سبل الراحة في طريق الخير، ينصحهما ويقبل نصحهما وينفعهما وينتفع بهما، وهو «ريحانة من

(١)سورة الأحقاف: ١٥ـ ١٧

رياحين الجنة» كما عن رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو «أجمل الذّكرين»[(١)].

ونموذج آخر هو الذي تحدثت عنه الآية، منسلخ عن عقائده، مغرور بنفسه، لا يكتفي بذلك بل يكون على أبويه وبالا في دنياهما، وعارا بعدهما، وهما يستغيثان الله منه، فهو «يهدم الشرف، ويشين السلف، ويفسد الخلف»[(٢)]، وفي أقل التقادير فهو على غير طريق الهدى وفي سفينة الهلاك، ونتيجته أن ﴿حَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾.

وإذا كان هذا النموذج موجودا في صفحات التاريخ، ينتج ما ينتج من هدم وشين وفساد، كما حصل لعبد الله بن الزبير، فإن النموذج الآخر ليس بالقليل، بل إننا نجد مطالع نور، وكواكب هداية، وحججا على الباقي هم الذرية الطيبة، وقرة الأعين، وميراث الله عز وجل من عباده المؤمنين.

بنت عبد الله بن عفيف التي أعانت أباها في مواجهته لأزلام الأمويين الذين جاؤوا لقتال أبيها وهي تدافع عنه، وترشده في القتال ـ إذ كان كفيف البصر ـ.

وفي طليعة القائمة قنواء بنت رشيد الهجري. تلميذة نجيبة لعالم، يكفيه أنه تلميذ أمير المؤمنين عليه السلام، حيث علّمه «البلايا والمنايا»[(٣)].

---

(١) ميزان الحكمة ١٠

(٢) عن أمير المؤمنين عليه السلام في المصدر السابق

(٣) هذا اللفظ يتكرر في ترجمة رشيد الهجري ، وعدد آخر من خلص الأصحاب أن أمير المؤمنين عليه السلام قد علمهم علم البلايا والمنايا ، ولا نعلم تفاصيل ذلك ، فقد يكون الإمام عليه السلام قد علم هؤلاء الأصحاب القواعد الأساسية والسنن التاريخية التي تحكم مسيرة الأمة ، وأن الأمة بناء على هذه السنن ستصل إلى تلك

رأى فيها أبوها امتدادا رساليا له، ولخطه، فقام بتربيتها على أسس تمكنها من مواجهة المشاكل المستقبلية.

يا بنية أميتي الحديث بالكتمان واجعلي القلب مسكن الأمانة[1]

أول وصية أوصاها بها أبوها.. وأول قاعدة في الجهاد والعمل الرسالي، فكم من الجهود ضاعت على أثر انفراط حبل السرية والكتمان، وكم من الخطط فسدت تبعا لانكشاف أمرها قبل ذلك فإن (إظهار الشيء قبل أن يستحكم مفسدة له). وبالرغم من توصيات المعصومين على التقية والتكتم باعتبارها استراتيجية في العمل، إلا أن بريق الظهور بمظهر العارف بالأمور، و(الشخص المهم) الذي يعرف القضايا المختلفة، يتغلب في كثير من الأحيان على مصالح العمل.

وإذا كانت الصورة الغالبة المعروفة للمرأة أنها لا تستطيع أن تستمسك على سر حتى تكشفه وتبديه، فإن هذه الصورة ليست هي النهائية، فإننا قد وجدنا نساء قد أئتمن على أشياء خطيرة وأسرار عزيزة وبقيت في مستقرها (ميتة في القلب). فهذه أخت محمد بن أبي عمير (من خلص أصحاب الكاظم والرضا عليهما السلام) قد ائتمنها أخوها على كتبه حين سجنه أربع سنين، فقامت ودفنتها في

النهايات التي وصلت إليها ، وقد يكون علمهم تفاصيل ما يجري مما علمه من رسول الله صلى الله عليه وآله ، فإن رسول الله قد أخبر ببعض ما سيجري على الأمة حتى لعامة أصحابه فيما سمي بأخبار الملاحم والفتن ، واختص أمير المؤمنين بإخباره عن جميع ذلك. فمن رأى منه أمير المؤمنين عليه السلام قابلية لحمل تلك العلوم ربما كان يفيض عليه من عنده

(١) بحار الأنوار ٤٢/ ١٣٩

الأرض عندما هم الحاكمون بتفتيش بيتها.وبقي خبرها مستورا إلى أن خرج أخوها من السجن.

كان هذا هو الأساس الأول الذي تعلمته قنواء من أبيها، ولا يعني ذلك أنها لا تظهر فكر أهل البيت أو أنها تنكفئ على نفسها، وإنما ينبغي التمييز بين الإرشاد والتبليغ والذي هو واجب، ونشر الفكر الديني، وبين التحفظ على ما لو ظهر لكان ضارا أو ضرره أكثر من نفعه.

الوعي أساس الإيمان

تقول قنواء: قلت لأبي: ما أشد اجتهادك قال: يا بنية يأتي قوم بعدنا بصائرهم في دينهم أفضل من اجتهادنا [١].

يتصور البعض أن المشكلة في مجتمعاتنا هي مشكلة (دينية) بالمعنى الضيق للكلمة، وهو وهم، إنما المشكلة الحقيقية هي مشكلة الوعي، فلو كان الوعي موجودا لكان الإيمان مرافقا له، ولو كانت البصيرة لما حدثت المشاكل الدينية حتى عند المتدينين أنفسهم، ولذلك كان تأكيد القرآن الكريم (اعو على بصيرة أنا ومن اتبعن).

التخبط الذي نراه في بعض المجتمعات الدينية، بالرغم من تمسكها الظاهري بأهداب الدين، لا تفسير له إلا تشوش الرؤية، وانعدام البصيرة. وقلة المعرفة وهذا الدرس لو حفظته الأمة لما حصل هذا التخبط الذي نراه في مختلف بلادنا.

ولعمري.. هذه المقارنة الرائعة من قبل رشيد الهجري، بين البصائر وبين الاجتهاد (في العبادة والعمل والتحمل)، وأنهم وإن كانوا على شيء كبير من الاجتهاد العبادي والعملي إلا أن من يأتي

---

(١) المصدر السابق

ويكون لديه الاجتهاد النظري، والمعرفة العلمية، ووضوح الرؤية يكون إيمانه أفضل. ولعل رشيدا رحمه الله لا يريد تأكيد المفاضلة، بقدر ما يريد أن يبين أهمية البصيرة ووضوح الرؤية، والمعرفة.

نعم نظرت قنواء إلى اجتهاد أبيها في عبادته، وعمله، فأشفقت عليه وتعجبت من ذلك بل أعجبت به، فقال لها إن محل الإعجاب ينبغي أن يكون في البصيرة الواضحة ـ وقد كان رشيد نافذ البصيرة ثاقبها ـ.

وكان ذلك هو الدرس الثاني الذي تعلمته من أبيها، فأعانها على مواجهة المشاكل، لا يهم ما الذي يحيط بالمرء من ظروف صعبة إذا كان (يضرب ببصره أقصى القوم) وكان (يعلم أنه لن يصيبه إلا ما قُسم له وكتب عليه).. وينتج عن هذا أن الجزع والخوف الذي يمنع الكثير من الناس من عمل الخير، والإقدام على الجهاد، سيتراجع تأثيره بل سنيعدم.

وهذا هو نفسه الذي جعل رشيد يقدم على قدره في الشهادة من غير أن تكون قنواء بالنسبة له (مبخلة مجبنة) [1]، بل كانت مصداق ﴿يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾[2]

---

(١) مفاد أحاديث متعددة أن الولد فتنة ، وأنه منحلة أو مبخلة ومحزنة ، أي محل لإثارة الحزن والبخل والجبن ، وهذا صحيح بحسب الطبع الأولي العاطفي ، إلا أن يتغلب الجانب الإيماني عند المرأة ، فيتعالى شعوره بالواجب والإحساس الديني على حزنه الشخصي وحرصه وتردده وخوفه على أبنائه. أو أن يكون الولد نفسه واعيا لمقدار الواجب وأهميته فحينئذ هو الذي يشجع أباه على المضي.

(٢) الصافات / ١٠٢

تلك التربية أنتجت قنواء الصابرة التي ستواجه المستقبل برباطة جأش، من دون أن يؤثر فيها علمها بشهادة أبيها القادمة قريبا، على نحو سلبي، بل ولا يؤثر فيه علمها ذلك، فلن تجزع أو تقف مانعا له عن أداء رسالته بزعم الخوف على حياته، وأنها سوف تثكل به ولا والي لها أو كفيل.. فلا هي تأثرت سلبا بذلك العلم ولا هو تأثر كذلك. ها هي تتحدث عن معرفتها ـ كمعرفته ـ بكيفية الشهادة، ويلاحظ أن هذه الكيفية فيها من الهول ما لو تصوره إنسان ـ في غير مثال رشيد وابنته ونظرائهما ـ لفارق النوم عينيه حتى ليموت بعضهم من تصور الموقف قبل حدوثه.. ألم أقل لك، عزيزي القارئ، هذا نمط في التربية يؤدي إلى مستوى عال من التعامل مع المشاكل.. لنستمع إلى قنواء وهي تتحدث:

سمعت من أبي يقول: قال: حدثني أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا رشيد كيف صبرك إذا أرسل إليك دعي بني أمية فقطع يديك ورجليك ولسانك؟

فقلت: يا أمير المؤمنين آخر ذلك الجنة!!

قال: بلى يا رشيد أنت معي في الدنيا والآخرة.

قالت قنواء: فوالله ما ذهبت الأيام حتى أرسل إليه الدعي عبيدالله بن زياد فدعاه إلى البراءة من أمير المؤمنين عليه السلام فأبى أن يتبرأ منه.

فقال له الدعي: فبأي ميتة قال لك تموت؟

قال: أخبرني خليلي أنك تدعوني إلى البراءة منه فلا أتبرأ منه فتقدمني فتقطع يدي ورجلي ولساني!

فقال: والله لأكذبن قوله فيك قدموه فاقطعوا يديه ورجليه

واتركوا لسانه فحملت طوائفه[١] لما قطعت يداه ورجلاه.

فقلت له: يا أبه كيف تجد ألما لما أصابك.

فقال: لا يا بنية إلا كالزحام بين الناس.

فلما حملناه وأخرجناه من القصر اجتمع الناس حوله فقال: ائتوني بصحيفة ودواة أكتب لكم ما يكون إلى أن تقوم الساعة فإن للقوم بقية لم يأخذوها مني بعد فأتوه بصحيفة فكتب الكتاب بسم الله الرحمن الرحيم. وذهب لعين فأخبره أنه يكتب للناس ما يكون إلى أن تقوم الساعة فأرسل إليه الحجام حتى قطع لسانه فمات في ليلته تلك[٢].

---

(١) أي جمعت أطراف يديه ورجليه لما قطعت كما في رجال الكشى

(٢) بحار الأنوار ٩ / ٦٣٣

فاطمة بنت أمير المؤمنين

علي بن أبي طالب عليه السلام

ها هي وقد امتد بها العمر طويلا تتذكر، وبعض الذكرى تجديد للألم، لكنه الألم اللطيف الذي يحب الإنسان استعادته والحديث عنه بعدما زال وانتهى، وأعقب نصرا وبشرى.أما قالوا «عند الصباح يحمد القوم السرى»؟

يتصور المرء ـ وهو تحت ضغط الظروف القاسية ـ أن الدنيا ليس لها غير هذا الوجه الكالح الذي تواجهه به، وأن هذا هو نهاية المطاف، مما يؤدي ببعضهم إلى اليأس فالكفر أو العبيثة والانتحار وكلها انتحار..« حتى يظن الظان أن الدنيا معقولة على بني أمية تمنحهم درها وتعطيهم صفوها، وكذب الظان لذلك إنما هي مجة من لذيذ العيش يتطعمونها برهة ثم يلفظونها جملة »[1]. لكن أصحاب البصائر ينظرون ـ في أتون المشكلة ـ إلى بشائر النصر وطلائع التغيير.

ها هي فاطمة بنت أمير المؤمنين عليه السلام التي ولدت لأم ولد، وشاطرت أباها ثم أخويها الحسنين مواقفهم وحياتهم، تتذكر وتستفيد مما بقي من عمرها الذي أمتد لقرابة التسعين عاما في الحديث والرواية، ونقل ما مر على سمعها وبصرها طوال هذه المدة الطويلة..

---

(١) نهج البلاغة لأمير المؤمنين عليه السلام

من أين تبدأ؟

من أبيها الذي لا صنو له، ولا شبيه بعد رسول الله صلى الله عليه وآله؟ «ولم أر مثله حقا أضيعا»! ها هي تروي لمن يريد الاستماع عن اسماء بنت عميس ـ زوجة أبيها ـ عن رسول الله صلى الله عليه وآله «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»، وتروي عنها حديث رد الشمس لأمير المؤمنين عليه السلام.

أم عن أخيها الحسن المجتبى ذلك الكوثر المهدور، والكامل الذي أُسلم في وقت الشدة، حتى هادن معاوية بن أبي سفيان.. باستثناء قلة عرفوا منه ما جهله غيره، فكانوا أنصاره في رخائه وشدته، ومنهم زوجها أبو سعيد بن عقيل بن أبي طالب، الذي وقف نفسه على الدفاع عن آل علي عليهم السلام ..فهاهو في مجلس معاوية مع الإمام الحسن المجتبى عليه السلام كما في شرح النهج ـ روى أبو عثمان أيضا قال دخل الحسن بن علي عليهما السلام على معاوية و عنده عبد الله بن الزبير و كان معاوية يحب أن يغري بين قريش فقال يا أبا محمد أيهما كان أكبر سنا علي أم الزبير؟

فقال الحسن عليه السلام: ما أقرب ما بينهما و علي أسن من الزبير رحم الله عليا!

فقال ابن الزبير: رحم الله الزبير!

وكان هناك أبو سعيد بن عقيل بن أبي طالب فقال: يا عبد الله و ما يهيجك من أن يترحم الرجل على أبيه؟

قال: و أنا أيضا ترحمت على أبي!

قال: أ تظنه ندّاً له و كفؤا؟

قال: و ما يعدل به عن ذلك كلاهما من قريش و كلاهما دعا إلى نفسه و لم يتم له.

قـال: دع ذاك عنـك يـا عبـد الله إن عليـا مـن قـريش و مـن الرسول(١) حيث تعلم و لما دعا إلى نفسه أتبع فيه و كان رأسا و دعا الزبير إلى أمر و كان الرأس فيه امرأة و لما تراءت الفئتان نكص على عقبيه و ولى مدبرا قبل أن يظهر الحـق فيأخـذه أو يـدحض الباطـل فيتركه فأدركه رجل لو قيس ببعض أعضائه لكـان أصـغر فـضرب عنقه و أخذ سلبه و جاء برأسه و مضى علي قدما كعادته مـع ابـن عمه رحم الله عليا

فقال ابن الزبير أما لو أن غيرك تكلم بهذا يا أبـا سـعيد لعلـم! (يشير إلى الإمام الحسن عليه السلام).

فقال: إن الذي تعرض به يرغب عنك.. و كفه معاوية فسكتوا.

و أخبرت عائشة بمقالتهم و مر أبو سعيد بفنائها فنادته يـا أبـا سعيد أنت القائل لابن أختي كذا فالتفت أبو سـعيد فلـم يـر شـيئا فقال إن الشيطان يرانا و لا نراه فضحكت عائشة و قالت لله أبوك ما أذلق لسانك(٢)!!

أم تراها تتذكر كربلاء؟ وهي التي شاركت فيها مـن أول أيامهـا إلى عودة الركب الحسيني إلى المدينة.. لقد نـصبت نفـسها للحـديث عن تفاصيل الواقعة الكبرى في تاريخ الإسلام، لكي تستلهم الأجيال

---

(١) هنا يتبين أهمية نشر مناقب وفضائل أمير المؤمنين عليه السلام، الأمر الذي كان يقوم به أهل البيت ومنهم فاطمة كما في الأسطر السابقة كحديث المنزلة وأمثاله ، فإن أعداء أهل البيت ذكروا فكرة خاطئة وهي أن عليا كغيره من الناس بل إنه فشل في الوصول إلى هدفه ، ومعنى ذلك أن معاوية أفضل منه لأنه وصل إلى الحكم وبقي فيه.. ثم صدقوا تلك الفرية

(٢) شرح نهج البلاغة ١١/ ٢٠

على امتداد الزمان والتاريخ منها الدروس والعبر. حتى ليكاد المرء أن يرى أن تاريخ أبي مخنف الأزدي، في جملة كبيرة منه هو عنها بواسطة الحارث بن كعب، فهاهي تتحدث عن الشام وما جرى في مجلس يزيد:

عن فاطمة بنت عليهما أنها قالت لما أجلسنا بين يدي يزيد بن معاوية رق لنا أول شيء و ألطفنا ثم إن رجلا من أهل الشام أحمر قام إليه فقال يا أمير المؤمنين هب لي هذه الجارية يعنيني و كنت جارية وضيئة فأرعبت و فرقت و ظننت أنه يفعل ذلك فأخذت بثياب أختي و هي أكبر مني و أعقل فقالت كذبت و الله و لعنت ما ذاك لك و لا له فغضب يزيد و قال بل كذبت و الله لو شئت لفعلته قالت لا و الله ما جعل الله ذلك لك إلا أن تخرج من ملتنا و تدين بغير ديننا فغضب يزيد ثم قال إياي تستقبلين بهذا إنما خرج من الدين أبوك و أخوك فقالت بدين الله و دين أبي و أخي و جدي اهتديت أنت و جدك و أبوك قال كذبت يا عدوة الله قالت أمير يشتم ظالما و يقهر بسلطانه قالت فكأنه لعنه الله استحيا فسكت فأعاد الشامي لعنه الله فقال يا أمير المؤمنين هب لي هذه الجارية فقال له اعزب وهب الله لك حتفا قاضيا[1].

---

(١) بحار الأنوار ٤٥/ ١٥٦.. لا يخفى أن هناك روايات تفيد أن التي جرت لها الحادثة هي فاطمة بنت الحسين عليه السلام، وأنها لاذت بعمتها زينب ، كما هو في جزء ٤٥ من البحار ، ومع فرض عدم تكرر الحادثة فإن الأقرب هو أنها وقعت لفاطمة بنت الحسين التي قالت ـ بحسب تلك الرواية أوتمت وأستخدم! ـ وأن الكلام عن (جارية) والجارية : من لم تبلغ الحلم من النساء (كما في كتب اللغة) وبهذا يبعد أن تكون المقصودة فاطمة بنت علي التي كان لها في ذلك الوقت

عن فاطمة بنت علي ص قالت ثم إن يزيد لعنه الله أمر بنساء الحسين فحبس مع علي بن الحسين عليهما السلام في محبس لا يكنهم من حر و لا قر حتى تقشرت وجوههم و لم يرفع ببيت المقدس حجر على وجه الأرض إلا وجد تحته دم عبيط و أبصر الناس الشمس على الحيطان حمراء كأنها الملاحف المعصفرة إلى أن خرج علي بن الحسين بالنسوة و رد رأس الحسين عليه السلام إلى كربلاء [1].

ولكن هل تستمر أيام الآلام؟ وهل الدنيا معقولة على أهل الظلم؟ كلا فما مرت الأيام حتى أيقظ دم الحسين عليه السلام في الأمة ما نام من خلاياها، وأحيا فيها ما مات من عزيمتها فإذا بها تنتفض (يالثارات الحسين)، وقامت الكوفة مناصرة لخط من خذلت والتفت حول الطالب بالثار، وعمت فرحة الانتصار في خط أهل الولاية، حتى لقد قالت فاطمة بنت علي ما تحنأت امرأة منا و لا أجالت في عينها مرودا و لا امتشطت حتى بعث المختار رأس عبيد الله بن زياد.

لقد شفى المختار الثقفي الغيظ، وأبان عن سنة أنه (بشر القاتل بالقتل ولو بعد حين)، ولم يذهب علم أهل البيت الذي كان يأخذه على يد أشخاص منهم فاطمة، لم يذهب في غير محله ولا روى إلا أرضه، فأنتج فيها ولاء وانتماء، لقد كان المختار يتردد في بيت فاطمة

في أقل التقادير ثلاثون عاما ، لو فرضنا أنها ولدت في عام ثلاثين أي قبل شهادة أمير المؤمنين بعشرة أعوام. نعم لو قيل بأن لفظ الجارية يطلق على الأمة وإن كانت كبيرة السن وأن الشامي تصورها جارية لصح ، لكنه يضعف بأنها هي أكدت أنها (جارية) وضيئة.. ويحتمل أن يكون الشامي قد أشار إلى جهة النساء فتصورت فاطمة أنها المقصودة، حيث أنه لم يسم وإنما أشار إلى جهة النساء

(١)

يعين وربما «مهد لها الفراش، ومنها أخذ العلم»[(١)].

وإذا كان الحسين عليه السلام قد قدم في كربلاء للإنسان أعظم درس في الفداء والتضحية، وعلمه كيف يختار طريقة موته إن منع أن يختار طريقة الحياة التي يريدها، فلقد كانت الأمة بحاجة أيضا إلى تصحيح علاقتها وارتباطها العبادي والروحي بالله.

فكان زين العابدين علي بن الحسين السجاد عليه السلام على الدرب، مصباحا ينير للسالكين طريق معرفة الله ومحبته، والتضرع إليه، عالما أن العلاقة مع الخالق هي الأساس، فإن أحسنت الأمة علاقتها بخالقها، و(من أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى). فكان أن أفاض السجاد على الأمة من عبادته ودعائه، ما يصنع لها برنامجا سليما لو اتبعه في معرفة الله والاستعانة به، والخشية منه. وبلغ في العبادة مرتبة أنه (ينادى يوم القيامة: أين زين العابدين فيقوم علي بن الحسين يتخطى الرقاب)! مما جعل البعض ومنهم عمته فاطمة بنت علي تخشى عليه من الدأب في العبادة إلى هذا المقدار. فهذا طاوس الفقيه يقول: رأيت في الحجر زين العابدين عليه السلام يصلي و يدعو عبيدك ببابك أسيرك بفنائك مسكينك بفنائك سائلك بفنائك يشكو إليك ما لا يخفى عليك.

و أتت فاطمة بنت علي بن أبي طالب عليهما السلام إلى جابر بن عبد الله فقالت له: يا صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إن لنا عليكم حقوقا و من حقنا عليكم أن إذا رأيتم أحدنا يهلك نفسه اجتهادا أن تذكروه الله

---

(١) ذكر الكشي في رواية عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: «... أخبرني أبي والله إنه ـ أي المختار ـ كان يمر عند فاطمة بنت علي يمهدها الفراش ويثني لها الوسائد ومنها أصاب الحديث».

و تدعوه إلى البقيا على نفسه و هـذا علـي بـن الحـسين بقيـة أبيـه الحسين قد انخرم أنفه و نقبت جبهته و ركبتاه و راحتاه أذاب نفـسه في العبادة.

فأتى جابر إلى بابه و استأذن فلما دخل عليه وجده في محرابه قد أنضته العبادة فنهض علي فسأله عن حاله سـؤالا حفيـا ثم أجلـسه بجنبه ثم أقبل جابر يقول يا ابن رسول الله أ ما علمت أن الله إنما خلق الجنة لكم و لمن أحبكم و خلق النار لمن أبغضكم و عاداكم فما هذا الجهد الذي كلفته نفسك؟

فقال له علي بن الحسين: يا صاحب رسول الله أ مـا علمـت أن جدي رسول الله ص قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر فلـم يدع الاجتهاد له و تعبد بأبي هو و أمـي حـتى انـتفخ الـساق و ورم القدم و قيل له أ تفعل هذا و قد غفر الله لك مـا تَقَـدَّمَ مِـنْ ذَنْبِـكَ وَ ما تَأَخَّرَ قال أ فلا أكون عبدا شكورا.

فلما نظر إليه جابر و ليس يغني فيه قول قال يا ابن رسـول الله البقيـا علـى نفـسك فإنـك مـن أسـرة بهـم يـستدفع الـبلاء و بهـم تستكشف اللأواء و بهم تستمسك السماء.

فقال يا جابر لا أزال علـى منـهاج أبـوي مؤتـسيا بهمـا حـتى ألقاهما. فأقبل جابر على من حـضر فقـال لهـم مـا رؤي مـن أولاد الأنبياء مثل علي بن الحسين إلا يوسف بن يعقوب و الله لذرية علي بن الحسين أفضل من ذرية يوسف(١)!

هل أدركت أبا عبد الله الصادق؟

ورد في بعض الروايات أن فاطمة قد مـد لهـا مـن العمـر حـتى

(١) بحار الأنوار ٤٦/ ٧٩

أدركت أبا عبد الله الصادق عليه السلام، ولكن لم ترو عنه، وهذا ليس بالبعيد فمن المعلوم أن عمرها قد تجاوز السادسة والثمانين وهي لا تزال تحدث وتنقل الرواية لطلاب الحديث والمعرفة[١]، فلو فرضنا أنها ولدت ما بين السنة الخامسة عشر والثلاثين للهجرة فتكون وفاتها ما بين المائة والمائة وخمسة عشر للهجرة وعلى التقديرين تكون قد أدركت الإمام الصادق عليه السلام حيث أنه ولد سنة ثلاثة وثمانين للهجرة النبوية.

---

(١) / قال في العمدة : ـ و بالإسناد المقدم قال حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال حدثني أبي عن أبيه قال حدثني يحيى بن سعد عن موسى الجهني قال دخلت على فاطمة بنت علي عليها السلام فقال لها رفيقي أبو مهدي كم لك فقالت ست و ثمانون سنة قال ما سمعت من أبيك شيئا قالت حدثتني أسماء بنت عميس أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لعلي عليه السلام أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه ليس بعدي نبي

أم الخير بنت الحريش البارقية

يكتنف موضوع المشاركة السياسية للمرأة في مجتمعاتنا الإسلامية، كثيرٌ من الحساسية بل أكاد أقول يكتنف موضوع المرأة أصلا ذلك المقدار من الحساسية، فأنت تستطيع الحديث بسهولة في الأمور المختلفة إلى أن يأتي هذا الحديث، فتختلط فيه العادات بالتقاليد، والشرعي بالاجتماعي، والشخصي بالعام.. وهكذا يضيع الصواب.

ومما زاد الأمر أشكالا أن النماذج الحاضرة في الذهنية العامة للمشاركة السياسية النسائية نماذج غير مناسبة تماما سواء في الوقت الراهن أو في التاريخ.

بينما يفترض أن الممارسة الخاطئة لدور ما لا يعني خطأ ذلك الدور، وإذا كان أحد المصاديق سيئا فلا يعني ذلك أن السوء ملازم للطبيعة.

إن المشاركة السياسية للمرأة المسلمة ـ بالنحو الذي سنبينه فيما بعد ـ كانت في تاريخ الإسلام على مسمع ومرأى من المعصومين عليهم السلام بدءا برسول الله صلى الله عليه وآله، ومرورا بعهد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وكذا سائر الأئمة ولم تواجه بردع ـ ما دامت في الحدود الدينية وضمن ضوابط الإسلام، تماما كما هو الحال بالنسبة للممارسة السياسية للرجل ـ.نعم لو خرجت تلك الممارسة عن الضوابط الشرعية تكون ممنوعة، وهذا لا يختص بممارستها السياسية ودورها الاجتماعي بل هو بالنسبة إلى كل عمل ومن قبل أي صنف.

المشاركة السياسية بما تعني من مسؤولية في تحديد جبهة الحق ومعرفة أهل الإيمان، وفصل ذلك عن جبهة الباطل، وهي مسؤولية مهمة وخطيرة لأنه على ضوئها يتقرر الأمر الثاني وهو الانتماء إلى تلك الجبهة والفئة المحقة فالانتماء موقف، ولا بد في هذه الحياة من الانتماء إلى جهة الحق والرسالة وإلا كان المرء منتميا ـ بنحو طبيعي ـ إلى معسكر الباطل والعبثية، ولا توجد منطقة متوسطة بينهما فـ (ماذا بعد الحق إلا الضلال)؟

وأخيرا الوعي بالمسؤوليات المترتبة على ذلك الانتماء، من الدعوة إليه والتبشير به وإبلاغ رسالته وإيصال صوته إلى الدفاع بكافة أشكاله، وبحسب المواقع التي يحتاجها في الدفاع، وحسب القدرة المتوفرة للمنتمي.

لقد وجدنا حالات كثيرة، ونماذج متعددة لمؤمنات استطعن الدفاع عن معسكر الحق في زمن السلم كما قاموا بذلك في زمان الحرب. وبالرغم من أن الصورة النمطية للمرأة في جبهات القتال لا تعجب الكثيرين إذ يتبادر إلى الذهن ما نراه في الوقت الحاضر من صور غير مشرفة، أو في الزمن الماضي من تجاوزات لدور المرأة الحقيقي إلا أن ذلك هو جزء من الصورة، وهناك جزء آخر مشرق شديد التأثير هو ما نقرؤه في التاريخ الإسلامي عن مجاهدات بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، سواء في المعركة كأم عمارة، أو معبئات للحماس، والنشاط القتالي كما وجدنا في حرب صفين أمام أمير المؤمنين عليه السلام .

وبين أيدينا نموذج لمجاهدة مارست الأمرين في دفاعها عن القائد الرسالي والخط الإيماني المتمثل في أمير المؤمنين عليه السلام في حياته وبعد شهادته. سوف نحاول أن نتعرف على شخصيتها من خلال كلامها، وذلك أن الكلام مرآة الثقافة والوعي، والوعي هو الذي يصنع الموقف الخارجي ـ عادة ـ، خصوصا إذا كان هذا الكلام والخطاب

في مكان لا محل فيه للتبجح والافتخار، كميدان المعركة.

سوف يظهر لنا من خلال التأمل ـ الدقيق الذي أدعو إليه عزيزي القارئ ـ أن ما قد ألقي في روع نساء مجتمعنا من الانكفاء والانسحاب والسلبية، ليس كما ينبغي فهذه لبؤة مؤمنة تزأر في ميدان المعركة مدافعة عن أمير المؤمنين منطلقة في كلماتها من وعي عقائدي عال، ومن معرفة سياسية ناضجة. فهلم معي لتشهد الموقف الذي وقفته أمام معاوية بن أبي سفيان بعد شهادة أمير المؤمنين عليه السلام، حيث الدنيا قد بسطت رداءها له، وتفرق عن الإمام الحسن عليه السلام أنصاره وأتباعه.

وأراد معاوية ووزراؤه أن (يتلهوا) باستقدام النساء المؤمنات المجاهدات، وإخافتهن بعدما استشهد أمير المؤمنين عليه السلام، وصار الإمام الحسن في موقع المحكوم. وهو في ذلك يريد تحقيق فوائد مختلفة، فإن استقدام هذه النسوة من أماكنهن البعيدة كالكوفة، وهن لا يعلمن ما المراد من ذلك يجعلهن ـ ويجعل أهاليهن وقبائلهن ـ نهبة الأوهام وفريسة القلق، وهذا أسلوب يعتمده البعض من الحاكمين أن يبقي الإنسان في دائرة المجهول فلا يعرف ما المراد منه، وما الذي سيجري عليه، فإذا طال به الزمان على هذا الحال ضعفت معنوياته وأراد أن ينهي هذا الوضع (الانتظار للمجهول) بأي ثمن. ثم إذا قدمت قد يقررها بأشياء في مذهبها وتأريخها وموقفها السياسي والجهادي، فهي ـ لخوفها أو لترغيبها ـ إما أن تتنكر لذلك الماضي، وتلعن تلك الأيام فيستفيد منها إعلاميا لإظهار صوابية منهجه. ويستدل عليه بأقوال أعدائه السابقين.. وإما أن لا تتنكر بل تظل ثابتة ولا يخيفها ما تراه من عنف أو حدة في الكلام ممن وصفتهم إحدى المجاهدات المؤمنات وقالت لمعاوية (نبحتني كلابك..) فهنا لو أظهر لها لينا ولم يعاقبه فقد كسب صورة إعلامية في حلمه وسعة صدره..فهو

على التقديرين رابح ولن يخسر شيئا.. فلننظر كيف واجهت أم الخير ذلك الموقف؟

فقد كتب معاوية إلى واليه بالكوفة أن أوفد علي أم الخير بنت الحريش بن سراقة البارقية رحلة محمودة الصحبة غير مذمومة العاقبة واعلم إني مجازيك بقولها فيك بالخير خيرا وبالشر شرا فلما ورد عليه الكتاب ركب إليها فاقرأها إياه فقالت أم الخير أما أنا فغير زائغة عن طاعة ولا معتلة بكذب ولقد كنت أحب لقاء أمير المؤمنين لأمور تختلج في صدري تجري مجرى النفس يغلى بها غلي المرجل بحب البلسن(١) يوقد بجزل السمر.

فلما حملها وأراد مفارقتها قال يا أم الخير إن معاوية قد ضمن لي عليه أن يقبل بقولك في بالخير خيرا وبالشر شرا فانظري كيف تكونين قالت يا هذا لا يطمعك والله برك بي في تزويقي الباطل ولا يؤنسنك معرفتك إياي أن أقول فيك غير الحق.

فسارت خير مسير فلما قدمت على معاوية أنزلها مع الحرم ثلاثا ثم أذن لها في اليوم الرابع وجمع لها الناس..

فدخلت عليه فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين!

فقال: وعليك السلام، وبالرغم ـ والله ـ منك دعوتني بهذا الاسم!

فقالت: مه يا هذا فإن بديهة السلطان مدحضة لما يحب علمه.

قال: صدقت يا خالة وكيف رأيت مسيرك؟

قالت: لم أزل في عافية وسلامة حتى أوفدت إلى ملك جزل وعطاء بذل فانا في عيش أنيق عند ملك رفيق.

---

(١) البلسن : حب كالعدس. والسمر : نوع من شجر العضاة

فقال معاوية: بحسن نيتي ظفرت بكم وأُعنت عليكم!

قالت: مه يا هذا لك والله من دحض المقال ما تردي عاقبته.

قال: ليس لهذا أردناك!

قالت: إنما اجري في ميدانك؟ إذا أجريت شيئا أجريته.فاسأل عما بدا لك!

قال:كيف كان كلامك يوم قتل عمار بن ياسر؟

قالت: لم أكن والله رويته قبل ولا زورته بعد، وإنما كانت كلمات نفثهن لساني حين الصدمة فإن شئت أن أحدث لك مقالا غير ذلك فعلت.

قال: لا أشاء ذلك. ثم التفت إلى أصحابه فقال:أيكم حفظ كلام أم الخير؟

قال رجل من القوم:أنا أحفظه يا أمير المؤمنين كحفظي سورة الحمد. قال:هاته

قال: نعم كأني بها يا أمير المؤمنين وعليها برد زبيدي كثيف الحاشية وهي على جمل أرمك وقد أحيط حولها حواء وبيدها سوط منتشر الضفر وهي كالفحل يهدر في شقشقته تقول: يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم إن الله قد أوضح الحق وأبان الدليل ونور السبيل ورفع العلم فلم يدعكم في عمياء مبهمة ولا سوداء مدلهمة فإلى أين تريدون رحمكم الله أفرارا عن أمير المؤمنين أم فرارا من الزحف أم رغبة عن الإسلام أم ارتدادا عن الحق؟

أما سمعتم الله عز وجل يقول ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [1]، ثم رفعت رأسها

---

(١)سورة محمد: ٣١

إلى السماء وهي تقول: اللهم قد عيل الصبر وضعف اليقين وانتشر الرعب وبيدك يا رب أزمة القلوب فاجمع إليه الكلمة على التقوى وألّف القلوب على الهدى واردد الحق إلى أهله.. هلموا رحمكم الله إلى الإمام العادل والوصي الوفي والصديق الأكبر إنها إحن بدرية وأحقاد جاهلية وضغائن أحدية وثب بها معاوية حين الغفلة ليدرك بها ثارات بني عبد شمس.

ثم قالت: (قاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون) صبرا معشر الأنصار والمهاجرين قاتلوا على بصيرة من ربكم وثبات من دينكم وكأني بكم غدا لقد لقيتم أهل الشام كحمر مستنفرة لا تدري أين يسلك بها من فجاج الأرض ، باعوا الآخرة بالدنيا واشتروا الضلالة بالهدى وباعوا البصيرة بالعمى ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ [1] حتى تحل بهم الندامة فيطلبون الإقالة إنه والله من ضل عن الحق وقع في الباطل ومن لم يسكن الجنة نزل النار أيها الناس إن الأكياس استقصروا عمر الدنيا فرفضوها واستبطأوا مدة الآخرة فسعوا لها.

والله أيها الناس لولا أن تبطل الحقوق وتعطل الحدود ويظهر الظالمون وتقوى كلمة الشيطان لما اخترنا ورود المنايا على خفض العيش وطيبه فإلى أين تريدون رحمكم الله عن ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وزوج ابنته وأبي ابنيه خلق من طينته وتفرع من نبعته وخصه بسره وجعله باب مدينته وعلم المسلمين وأبان ببغضه المنافقين فلم يزل كذلك يؤيده عز وجل بمعونته ويمضي على سنن استقامته لا يعرج لراحة الدأب ها هو مفلق الهام ومكسر الأصنام إذ صلى والناس مشركون وأطاع والناس مرتابون فلم يزل كذلك حتى قتل

(١)سورة المؤمنون: ٤٠

مبارزي بدر وأفنى أهل أحد وفرق جمع هوازن فيا لها من وقائع زرعت في قلوب قوم نفاقا وردة شقاقا قد اجتهدت في القول وبالغت في النصيحة وبالله التوفيق وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

فقال معاوية: والله يا أم الخير ما أردت بهذا الكلام إلا قتلي!والله لو قتلتك ما حرجت في ذلك.

قالت: والله ما يسؤني يا ابن هند أن يجري الله ذلك على يدي من يسعدني الله بشقائه.

قال: هيهات!! يا كثيرة الفضول ما تقولين في عثمان بن عفان؟

قالت وما عسيت أن أقول فيه استخلفه الناس وهم له كارهون وقتلوه وهم راِضون.

فقال معاوية: إيها يا أم الخير هذا والله أصلك الذي تبنين عليه!

قالت: «لكن الله يشهد بما انزل إليك انزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا» ما أردت لعثمان نقصا ولكن كان سباقا إلى الخيرات وانه لرفيع الدرجة.

قال: فما تقولين في طلحة بن عبيد الله؟

قالت: وما عسى أن أقول في طلحة اغتيل من مأمنه وأُتي من حيث لم يحذر وقد وعده رسول الله ﷺ الجنة!

قال: فما تقولين في الزبير؟

قالت: يا هذا لا تدعني كرجيع الصبيغ يعرك في المركن!

قال: حقا لتقولن ذلك وقد عزمت عليك!

قالت: وما عسيت أن أقول في الزبير ابن عمة رسول الله ﷺ وحواريه وقد شهد له رسول الله ﷺ الجنة ولقد كان سباقا إلى كل مكرمة في الإسلام واني أسالك بحق الله يا معاوية فإن قريشا تحدث

انك أحلمها فأنا أسألك بأن تسعني بفضل حلمك وأن تعفيني من هذه المسائل وامض لما شئت من غيرها.

قال: نعم وكرامة قد اعفيتك[١].

وأول ما يلاحظه المتأمل هو التزامها بما التزم به إمامها بعد الصلح، فما دام الإمام قد صالح وهادن فقد أصبح الموقف الجديد يقتضي سلوكا جديدا، ولهذا لما استدعيت من قبل الحكم الجديد قالت إنها تستجيب وأنها لا تخلع طاعة وغير زائغة عنها.وهذا الموقف منها ينم عن وعي سياسي عال فإن الكثير من المعارضين لجهة عندما تتغير الظروف وتكون مصلحة المؤمنين أو الإيمان في الهدنة أو الصلح، لا يستطيعون (هضم) هذه الوجبة ، ويظلون يعيشون ضمن معادلات الظرف القديم.. وبعضهم يفعل ذلك بحسن نية ويرى أنه هو المجاهد الحقيقي بينما غيره المتخاذل.. وقد حدث أن جاء للإمام الحسين عليه السلام بعد الصلح جماعة من الشيعة يريدون منه النهوض والتمرد على الحالة الجديدة، وإعلان الثورة لكن الإمام افهمهم بأن ذلك غير صحيح.

ثم إننا نلاحظ التقييم الصحيح غير الناشئ من العقد السابقة أو الانتماء العقيدي، فنحن نراها وهي في قمة جهادها ورفضها للحكم الأموي لا يمنعها ذلك من أن تمدح مثلا سفرتها إليه وأنها كانت ميسرة فيها ومرفهة.وإن كان ذلك لا يعني تغييرها لموقفها من الحكم الأموي.

كذلك نلاحظ ذكرها للإمام أمير المؤمنين بعنوان الوصي، وهذا مهم في البحث العقائدي فإن مما عليه فئة من المسلمين من إنكار وصية النبي للإمام يعتبر غير صحيح، ولقد فهم الذين عاصروا النبي

---

(١) بلاغات النساء لابن طيفور

والإمام أمر الوصية..وهذا النص يكتسب أهمية كبرى لجهة القائل والسامعين وتاريخ النص حيث أنه يرجع إلى حدود سنة ٣٦ لهجرة النبي ﷺ.

كما يمكننا النص السابق من ملاحظة وعيها التام لطبيعة الصراع الدائر بين معاوية وأمير المؤمنين، وأن القضية ليست كما يزعم بعض (فطاحل) العلماء من أن ما شجر بين الأصحاب اجتهاد وأن كلا مصيب..أو أن المسألة مطالبة معاوية بدم عثمان ورفض أمير المؤمنين تسليم قتلته، ها هي تقول: إن القضية استمرار للصراع السابق وإنما هي الأحقاد البدرية، والضغائن الأحدية، وقوم باعوا الآخرة بالدنيا.

ويتجلى الموقف الرسالي في هذه الحركة فتقول أن الأمر بالنسبة ليس نزاعا على السلطة ولا طمعا في الولائم وإنما هو قضية الدين والخشية عليه، أتراها سمعت كلام أمير المؤمنين في الخطبة الشقشقية « لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر لألقيت حبلها على غاربها ولسقيت آخرها بكأس أولها ولألفيتم دنياكم عندي أهون من عفطة عنز »؟ أو سمعت حديثه الآخر « اللهم إنك تعلم أنه لم يكن ما كان منا تنازعا في سلطان ولا التماسا لشيء من فضول الحطام ولكن لنرد المعالم من دينك وتقام المعطلة من حدودك فيأمن المظلومون في بلادك »..أسمعت تلكم البصائر التي تعين خطوط العمل والتحرك الرسالي والإمامي فأعادت صياغته بعباراتها مذكرة الجيش بها؟ «..لولا أن تبطل الحقوق وتعطل الحدود ويظهر الظالمون وتقوى كلمة الشيطان لما اخترنا ورود المنايا على خفض العيش وطيبه ».

وأخيرا ففي نفس الوقت الذي يكون فيه الرسالي ثابت الموقف قويا إلا أنه لا يكون غبيا فلا يسهل للعدو أمر استفزازه حتى يقتله

(بسيفه) ويجرد عليه ما ألقاه لسانه فإننا نراها بعد أن استفزها معاوية فلم يفلح أراد أن يوقعها في شرك السؤال عن فلان وفلان حتى لا يقال أنها عدوته وإنما عدوة الصحابة وحينئذ يمكن معاقبتها ضمن مبرر معقول عند البعض، لكنها رفضت ذلك وطلبت منه أن لا يتركها كرجيع الصبيغ يعركه في المركن والمغسل، وعندما عزم عليها في ذلك كانت أذكى فقالت له إن قريشا تتحدث عنه أنه أحلمها فإن كان كذلك فليسعها حلمه، وبذلك وضعته على محك التحدي بذكاء وأنقذت موقفها.

آمنة بنت الشريد

زوجة عمرو بن الحمق الخزاعي

ارجع أيها الرسول إلى معاوية وقل له ولا تَطوِهِ (أي لا تخفه عنه): أيتم الله ولدك وأوحش منك أهلك، ولا غفر لكَ ذنبك!!

من أول ما ابتدعه معاوية بن أبي سفيان، وكم له من ذلك!! سجن النساء كرهائن..

وكانت هذه السنة السيئة، فاتحة عهد ظلوم استمر عليه الأمويون، فكانوا إذا عجزوا عن القبض على مناوئيهم عمدوا إلى نسائهم، فسجنوهم كرهائن عندهم، حتى يضغطوا على الرجال في الاستسلام..وكان له على أثر ذلك وزرها ووزر من عمل عليها

ولقد كانت هذه الطريقة مؤثرة في بعض الحالات، تبعا لما كان المجتمع المسلم يعيشه من قيم الحفاظ على المرأة ورعاية سترها، بحيث كان الواحد منهم يضحي بنفسه لكي يحمي عرضه، وحجاب عائلته.

لكن موقف المؤمنات الصالحات، وقوة قلبهن أسقط هذا السلاح من يد معاوية، لا سيما موقف المجاهدة آمنة بنت الشريد، زوجة عمرو بن الحمق الخزاعي، فقد أسمعته من صليل لسانها ما يرن في مسمعه، وينكد عليه عيشه، أوليس (أعظم الجهاد كلمة حق عند إمام جائر)؟

بلى..لقد تتبع معاوية بعد شهادة أمير المؤمنين علي عليه السلام،

شيعة الكرار وراء كل حجر ومدر، وقد رفع قميص الخليفة عثمان راية له، وشعارا كاذبا بينما كان هو أول خاذل له، وكل من أراد قتله من أصحاب أمير المؤمنين كانت تهمته جاهزة وهي الإعانة على قتل الخليفة عثمان.. وقد ساعده في ذلك فئة غير قليلة من الذين وترهم علي عليه السلام على الإسلام، فهذا قد قتل أباه المشرك وذاك قد جدل أخاه، فجاؤوا يثأرون للجاهليين آباءهم وأرحامهم، من علي في أتباعه وشيعته.

وكان عمرو بن الحمق الخزاعي رضوان الله عليه من أجلة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد رُزق دعوة رسول الله حين سقى الرسول لبنا، فقال صلى الله عليه وآله: اللهم أمتعه بشبابه..قال أرباب السير فمرت عليه ثمانون سنة ولم ير له شعرة بيضاء. وكان من مقربي أمير المؤمنين عليه السلام فقد عد في روايات أهل البيت من حواريي أمير المؤمنين الذين ينادى بأسمائهم يوم القيامة، وكان واضح الموقف واعي القلب انتمى لخط أمير المؤمنين ببصيرة، ولنستمع إليه يعرب عن ذلك وقد وقف المواقف الشجاعة في حرب الجمل وصفين، يقول: «يا أمير المؤمنين والله ما اجبتك ولا بايعتك على قرابة بيني وبينك ولا إرادة مال تؤتينيه ولا إرادة سلطان ترفع به ذكري ولكني أجبتك بخصال خمس: أنك ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله وأنك أول من آمن به وزوج سيدة نساء هذه الأمة فاطمة بنت محمد، ووصيه، وأبو الذرية التي بقيت فينا من رسول الله، وأسبق الناس إلى الإسلام وأعظم المهاجرين سهما في الجهاد ن فلو أني كلفت نقل الجبال الرواسي ونزع البحور الطوامي حتى يأتي على يومي في أمر أقوي به وليك وأهين به عدوك ما رأيت أني قد أديت كل الذي يحق علي من حقك»..

فرفع أمير المؤمنين يده داعيا له: اللهم نور قلبه بالتقى واهده إلى

صراطك المستقيم.. ثم قال: ليت في جندي مائة مثلك!!

وفي موقف آخر أخبره أمير المؤمنين بأنه سيقتل بعده، فقال عليه السلام: إنك لمقتول بعدي وإن رأسك لمنقول وهو أول رأس ينقل في الإسلام والويل لقاتلك[1].

هذا هو إذن من يبحث عنه معاوية بن أبي سفيان، والتهمة جاهزة، إذ المهم تنفيذ القتل، ثم لن يعدم تهمة يحتج بها..أي صيد ثمين قد حصل عليه؟

كان معاوية قد كلّف بهذه المهمة زيادا (المجهول أبوه)، والذي كان يفتش عن هوية وبطاقة شخصية لكي يخرج من حالة الشهادة الدائمة على زنى أمه، واستغل ناوية نقطة الضعف تلك فنسبه إلى أبيه (أبي سفيان) وما يمنعه من ذلك وهم (ذرية بعضها من بعض) في هذه الجهات؟ واشترى منه زياد ذلك بسعر غال، فقد أفحش في تتبع شيعة أمير المؤمنين عليه السلام وقتلهم لكي يثبت أنه ـ بعمله ـ فعلا من الشجرة الملعونة ولا ينقص عن حقيقيي النسب فيها في حقدهم على أهل البيت. وجرد سيف بغيه فكان أن اعتقل حجرا بن عدي الكندي، وأصحابه، واستطاع عمرو بن الحمق الخزاعي أن يخرج من الكوفة متسللا، حتى نزل المدائن وكمن في جبل لكن عامل ذلك الرستاق، اطلع على خبره فجرد له فرقة عسكرية، وكان قد مرض بحيث لا يستطيع القتال، فأسر وأخذ إلى عامل الموصل الذي عرف شخصيته، فكتب إلى معاوية، الذي أصدر الأمر بقتله فورا..

واستشهد عمرو بن الحمق، وبعث برأسه إلى معاوية وكان أول رأس حمل في الإسلام ـ كما أخبره أمير المؤمنين عليه السلام، وجيء برأس عمرو بن الحمق إلى الشام، إلى قصر معاوية، وقد استتب له الأمر،

---

(١) بحار الأنوار ٤١

فدفعه إلى الحارس وأمره أن يذهب به إلى زوجته آمنة، وكانت قد سجنت فيه سنتين، وقال له أن يحفظ ما تتكلم به حتى يؤديه إليه، ترى.. هل كان معاوية يتوقع أن يسمع ذلك الرد العنيف المنطلق من قلب مؤمن بالله، واع بأن طريق الجهاد والولاية طريق محفوف بالمصاعب، والتضحيات، وأن نهاية المجاهدين فيه وأقصر طريق لهم هم طريق الشهادة وأنهم لا يدخلون الجنة إلا من أوسع أبوابها، وأنه لو فاتهم شهادة في صفين والجمل، فإن الله لن يحرمهم من شهادة أخرى متميزة؟

أم تراه كان يحب أن يسمع ضجيج امرأة ثاكل قد أحاط بها الهم في سجنه مدة سنتين من الزمان، هل كان ساديا يتلذذ بعذاب الآخرين، ويرتاح إلى أنين النساء وبكائهم؟

أو أنه كان يتوقع أن تنهد قوى المرأة المؤمنة تلك، فتتكلم بما يسره من الاستعطاف والاسترحام؟

فجاء الحارس وطرح الرأس في حجرها، فارتاعت هنيئة ثم وضعت يدها على رأسها وقالت:

ـ واحزناه لمصرعه في دار هوان وضيق مجلس سلطان، نفيتموه عني طويلا ثم أهديتموه إلي قتيلا، فأهلا وسهلا بمن كنت له غير قالية، وأنا اليوم له غير ناسية، إرجع أيها الرسول إلى معاوية وقل له ولا تَطوِه (أي لا تخفه عنه): أيتم الله ولدك وأوحش منك أهلك، ولا غفر لكَ ذنبك!!

وجاء الحارس وأخبر معاوية بما شاهده وما سمع ـ، فأرسل إليها وأتوه بها، وهو في جماعة منهم إياس بن حِسل أخو مالك بن حِسل، وكان في شدقه نتوء عن فمه لعِظَم في لسانه وثقل.

فقال معاوية لها: أنت ياعدوة الله صاحبة الكلام الذي بلغني؟

ـ فقالت آمنة: نعم، غير نازعة عنه ولا معتذرة منه، ولا منكـرة له فلعمري إني قد اجتهدت في الدعاء (عليك) غاية الاجتهاد وإن الله من وراء العباد فما بلغت شيئا من جزائك، والله بالنقمة من ورائك.

فأعرض عنها معاوية. فقال إيـاس (المـذكور): اقتلـها يـا أمـير المؤمنين فوالله ما كان زوجها بأحق بالقتل منها.

كـان هـذا (الإيـاس) تجـسيدا لـصور المرتزقـة الـواقفين ببـاب السلاطين، صورة ـ كما مر قبل قليل ـ ومعنى، فهم الذين ينتظـرون كلمة عطف أو نظرة لطف مـن الأمـير حـتى تنفـتح علـيهم الـدنيا بزعمهم، ويزايدون على المواقف الكاذبة حتى يثبتـوا لأميرهـم أنهـم أولياء له، ومتحمسون لقضيته، وهم يعلمون أنهم كذبـة وأمـراؤهم يعلمون أنهم منـافقون خونـة، لا يعرفـون غـير مـصلحة أنفـسهم، وشهوات ذواتهم، وأنهم بلا موقف.

ولم تمهله آمنة يسيغ بريقه، ولا يهنأ بذرب لسانه، فالتفتـت إليـه فلما رأته ناتئ الشدقين، ثقيل اللسان قالت: تبـاً لـك ويلـك، بـين لحييك كجثمان الضفدع ثم أنت تدعوه إلى قتلي كمـا قتـل زوجـي بالأمس، ﴿إِن تُرِيدُ إِلا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾[1]. فضحك منه معاوية ضحك سخرية. ثم قال لها ـ وقد أعجب بقوة قلبها ـ لله درك اخرجي ثم لا أسمع بـك في شـيء من الشام.

قالت: لأخرجن من الـشام فمـا في الـشام لي مـن حبيـب، ولا أعرج فيها على حميم، وما هي لي بوطن، ولا أحـن فيهـا إلى شـجن ولقد عظم فيها دَيني، وما قرت بها عيني، ومـا أنـا فيهـا بعائـدة ولا حيث كنت لك بحامدة.

---

(١)سورة القصص: ١٩

فأشار إليها بإصبعه ـ بعدما رأى أنه لو تكلم لأسمعته من قوارص لسانها، وقوارض بيانها ما لا يسعه سمعه ـ أن اخرجي..فخرجت وهي تقول: يا عجبي لمعاوية، يكف عني لسانه، ويشير إلي ببنانه، والله لأعرّقن حضني قاتل عمرو ـ زوجها ـ بكلام مؤيد شديد، أوجع له من نوافذ الحديد، الست بابنة الشريد؟؟

مرة أخرى وهي خارجة من ديوان معاوية، تلتقي برجل أصلع أسود أصعل هو الأسلع الهلالي، وإذا كان ما ذكر من وصف هو لشكله الخارجي، فلعل ذلك يشير إلى عريه من المواقف، وصلعه من الرجولة، وسواد مآله، وفعله، وما أكثر تواجد هؤلاء على أبواب السلاطين؟ فليس على المزابل غير الذباب.فسمعها وهي تقول ما تقول، فقال لها: لمن تعنين بهذا؟ لأميرالمؤمنين عليك لعنة الله؟؟

فنظرت إلى وجهه وإذا هو يختصر معناه ووجوده، وما ابلغها، وما أفصحها هذه المرأة، هذا مع أنها في ظرف مصيبة وثكل..لكنها معدن الذهب متى تزدد عليه نار المصائب يزدد صفاء وجودة ونقاء..لله درها وهي تنقل هذه الصورة التي تعجز عن نقلها الكاميرات المتحركة، لهذا الشخص الواقف أمامها.

قالت: خزيةً لك وجَدعا، تلعنني واللعنة بين جنبيك، ومن قرنك إلى قدميك (أي أنت محتو على اللعنة وتحملها بين جلدك)؟ إخسأ يا هامة الصُّعل (الدقيق الرأس الطويل المعوج) ووجه الجُعَل (حشرة كالخنفساء)، وأذلل بك نصيرا وأقلل بك ظهيرا.

فبهت الأسلع ثم سأل عنها فأخبر بخبرها، فأقبل إليها معتذرا منها خوفا من لسانها. فقالت: قد قبلت عذرك وإن تعد أعد ثم لم أُقلك ولم أراقبك. فبلغ ذلك معاوية فقال: كلا زعمت يا أسلع أنك لا تواقف مع يغلبك أما علمت أن حرارة الشوك ليست بمجانسة لنوافذ الكلام عند مواقف الخصومة، ألا تركت كلامها قبل النصفة

منها، ومنك الاعتذار إليها؟

قال: يا أمير المؤمنين لم أكن أرى امرأة تبلغ من معاضيل الكلام ما بلغت هذه المرأة، وقد جالستها فإذا هي تحمل قلبا شديدا ولسانا حديدا وجوابا عتيدا، فهالتني رعبا وأوسعتني سبا.

ثم إن معاوية أراد أن يسكتها فيما بعد، فقال إلى عبيد بن أوس: ابعث إليها بما يقطع عني لسانها وتقضي ما ذكرت من دينها، وتخف به إلى بلادها، وقال: اللهم اكفني شرها وشر لسانها.

وجاء الرسول بما أمر به معاوية، من مال الله الذي يشتري به ذمم الشعراء، والرؤساء، فتراهم يتهالكون على ذلك الحطام الحرام الزائل، فلما رأته قالت: واعجبا من معاوية! يقتل زوجي ويبعث لي بالجوائز! فليت حظي من أبي كرب سد عني خيره وشره!!

وخرجت من دمشق بعد سنتين من السجن، تحمل معها ألم الغربة والسجن، وحرارة الترمل بعد زوج صالح مثل عمرو بن الحمق الخزاعي رضوان الله عليه، ووجهتها هذه المرة إلى الكوفة، وفي الطريق لما وصلت إلى حمص أصابها الطاعون، فماتت، ماتت وماتت مواقفها الكريمة، وقضت وما دفنت كلماتها المبدئية العزيزة، تهاوى الجسد أمام طاعون الظلم، وطاعون المرض، وبقيت مثلا كريما للعزة التي تتمرد على الطغيان، وللقلب العظيم الذي يواجه الباطل قويا ثابتا لا يتضعضع، يواجه الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق.

وإذا كان (ذكر الفتى عمره الثاني) فلقد خلفت ذكرا عطرا تعبق بشذاه سماء المؤمنين..وكم هي الفاصلة بين رجال (بالصورة) لا بالسيرة وبين امرأة أظهرت من المروءة، ما يكفي لأجيال ومن الشجاعة ما يسقي امة.

انظر إلى النماذج التي عاصرتها، انظر إلى أولئك الصغار الزاحفين على الرمال ذلا وخضوعا، وإلى الأجراء

البائعين دينهم، وعقيدتهم في سوق النخاسة والبخس.

ماتت.. وجاء الأسلع إلى معاوية كالمستبشر، فقال: أفرخ روعك يا أمير المؤمنين!قد استجيبت دعوتك في ابنة الشريد، وقد كفيت شر لسانها!

فقال معاوية: وكيف ذاك؟.

قال: إنها مرت بحمص فلقيها الطاعون.

قال معاوية: فنفسك بشر بما أحببت فإن موتها لم يكن بأروح لي منه عليك، ولعمري لقد انتصفت منك حين أفرغت عليك شؤبوبا وبيلا.

فقال الأسلع: ما أصابني من حرارة كلامها شيء إلا وقد أصابك مثله وأشد منه [1].

---

(١) بلاغات النساء وتاريخ دمشق

أمامة بنت أبي العاص بن الربيع

توفيت قبل سنة ٥٠ هـ

كان للنبي ﷺ عدة بنات[١] من خديجة: زينب وأم كلثوم ورقية وفاطمة وهي أفضلهن.

زينب تزوجها أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس في مكة قبل البعثة وقبل إظهار النبي ﷺ لدعوته، وبعدها قام القرشيون بما زعموه ضغطا على الرسول، وإحراج حياته الشخصية، فتحدثوا مع أبي العاص ليطلق زينبا ويرجعها إلى بيت أبيها، وفي مقابل ذلك سيعطونه أجمل بنات قريش!!

وكان أبو الربيع ـ على الرغم من شركه حينئذ ـ شهما يقدر نفسه والتزاماته الاجتماعية، ويرى أنه لا يمكن لغيره ـ لأجل مصلحة سياسية أو شخصية ـ أن يتحكم في أمر زواجه هو وطلاقه! فكان أن رفض ذلك العرض جملة وتفصيلا.. بلى للرجال قيمٌ هي جزء شخصيتهم حتى قبل التزامهم بالدين، وهناك أناس لا قيم لهم حتى بعد انتمائهم لدين القيم.

---

(١) هذا على المعروف بين المؤرخين وإن كان بعض المحققين يشكك في ذلك.. براجع (الصحيح من سيرة الرسول الأعظم ج ٢ و بنات النبي أم ربائبه) للسيد جعفر مرتضى العاملي. وسيكون حديثنا هنا على طبق ما هو المعروف لا الرأي الآخر.فليلاحظ

نفس هذا الرجل وهو أبو الربيع، طلبت منه زينب زوجته أن تلحق برسول الله صلى الله عليه وآله في المدينة بعد أن أسلمت، فأجابها إلى ذلك وقبل منها!! ثم خرج إلى الشام لبعض تجارته.

في هذه الأثناء خرجت زينب مع بعض رفقتها لتلحق بالرسول، فلحق بها عدد من رجال وشخصيات!! قريش لمنعها من الذهاب إلى المدينة، ولكن أكثرهم رجولة!! كان هبار بن الأسود[1] الذي ظل يطعن بعيرها برمحه حتى صرعها وألقت ما في بطنها!

على الطرف الآخر كان أبو العاص زوجها في تجارته حتى إذا رجع قاصدا مكة المكرمة بدأت قريش بالاستعداد لحرب النبي صلى الله عليه وآله، وساقت الراغب والغاضب إلى المعركة شوقا وكرها، وكان ممن ذهب إلى بدر أبو العاص بن الربيع الذي ما أن بدأت المعركة حتى وقع أسيرا في يد المسلمين..

انتهت المعركة بنصر مؤزر للمسلمين، وعادوا بالغنائم: نصر واضح، ومعنويات متجددة، وعدد كبير من آلة الحرب، وسبعين أسيرا. سيشكلون قوة إضافية للمسلمين من خلال فدائهم أو تعليمهم المسلمين مبادئ القراءة والكتابة!

وجاءت الأموال ليفتدى بها كل أسير من قبل أهله.. وبينما الرسول يتفحص في أموال الفداء رأى قلادة عادت به إلى أيام الجهاد الأولى حيث ذكرى الحبيبة الغائبة خديجة! سأل عن القلادة فقيل هي من زينب لفداء زوجها أبي العاص..فرق النبي صلى الله عليه وآله رقة شديدة، حيث كانت خديجة قد جهزت زينب بها عندما أدخلتها على أبي العاص.. وقال إن شئتم أن تطلقوا أسيرها وتردوا عليها مالها،

---

(١) من العدد القليل الذين أباح النبي صلى الله عليه وآله دمهم عند فتح مكة، وكانوا الاستثناء من (اليوم يوم المرحمة)

ففعلوا وهنا طلب النبي من أبي العاص أن يرسل له زينبا، فوعده بذلك.

وأعيدت زينب إلى مكة، لتحاول مرة أخرى ـ فيما بعد ـ الوصول إلى المدينة بتخطيط من رسول الله ﷺ كما يذكر صاحب كتاب الذرية الطاهرة النبوية: أن رسول الله ﷺ قال لزيد بن حارثة ألا تنطلق فتجيئني بزينب!

قال: بلى يا رسول الله. قال: فخذ خاتمي فأعطها فانطلق زيد فلم يزل يتلطف حتى لقي راعيا فقال لمن ترعى؟ قال: لأبي العاص

قال: فلمن هذه الغنم؟ قال: لزينب بنت محمد. فسار معه شيئا ثم قال له هل لك أن أعطيك شيئا تعطيها إياه ولا تذكره لأحد؟ قال: نعم. فأعطاه الخاتم فانطلق الراعي فأدخل غنمه وأعطاها الخاتم فعرفته.

فقالت: من أعطاك هذا؟ قال: رجل قالت وأين تركته؟

قال: مكان كذا وكذا. فسكتت حتى إذا كان الليل خرجت إليه فلما جاءته قال لها زيد اركبي بين يدي على بعيري قالت لا ولكن اركب أنت بين يدي فركب وركبت خلفه حتى أتت المدينة!!

كانت تلك المواقف التي شهدها منذ بداية دعوة النبي ﷺ، تتفاعل في داخل أبي العاص، ورأى من خلالها قوما يصعدون في المدى الإنساني إلى أعلاه حيث لا حديث عن الانتقام والسعار الحيواني، وإنما هي الرحمة وإنما هي القيم حين تتجلى في المؤمن.. وأنتج ذلك أن يؤمن أبو العاص بعد سنة واحدة من هجرة زينب، ويعود الشمل مجموعا له مع زوجته زينب وابنته أمامة وابنه علي.

آمن أبو العاص وكان مع الإمام علي عليه السلام، في طريقه إلى اليمن عندما بعثه رسول الله ﷺ. واستخلفه علي عليه السلام على اليمن عند

عودته إلى المدينة.

كانت أمامة في هذا البيت فراشة ملائكية تحوم في أرجائه، فتبث فيه البهجة والسرور، وتستجلب نظر الرسول صلى الله عليه وآله، وهي في تلك السن المبكرة لكي يظهر للناس حبه إياها.. فقد يرى في الصلاة وهي على يديه فإذا سجد وضعها على الأرض[1]، وأخرى يحملها على عاتقه. وهو في ذلك يحقق أهدافا متعددة، فمن جهة تربوية هو يعلم الناس كيف يتعاملون مع أطفالهم لا سيما البنات منهم، بعد عقلية ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ وعقلية

بنونا بنو أبنائنا وبناتُنا بنوهن أبناء الرجال الأباعد

ومن جهة أخرى يعلم المسلمين نهجا فقهيا يقوم على أساس أن (كل شيء نظيف حتى تعلم أنه قذر)، وما أحرى المسلمين باتباع هذا المنهج! فإننا نجد أن قسما منهم حتى يومنا هذا يجتنبون أطفالهم، فيحرمونهم من الحنان والقبلة واللمسة بزعم أن الطفل نجس، ويبعد عن المائدة فلا يؤاكل في صحن ولا يشارك في شرب بزعم أنه نجس وهكذا.. حتى ينشأ بهذه الطريقة المعوجة..

نشأت أمامة بنت أبي العاص وبنت زينب في هذا الجو مكرمة على يد الرسول ومحبوبة من الأسرة، لذلك كانت على انسجام نفسي رائع مع سائر أبناء الرسول وعترته مما كان له الأثر المهم في

---

(١) ورد في أكثر الكتب الفقهية ـ غير الشيعية ـ كما ذكره العلامة في منتهى المطلب وصاحب المدارك والحدائق والجواهر وغيرهم. وقد استفادوا منه عدم البأس بالحركة القليلة التي لا تخرج بالمصلي عرفا عن الهيئة الصلاتية. وبعضهم استفاد أن الحركة المتفرقة القليلة غير ضارة وإن كانت بحيث لو اجتمعت وانضمت تحسب كثيرة

ترشيحها من قبل فاطمة الزهراء عليها السلام عند وفاتها لتكون زوجة لأمير المؤمنين عليه السلام، فلا يفهم أحدٌ أميرَ المؤمنين في ملكاته وصفاته وعلو ذاته كما تفهمه الزهراء البتول، ولذلك انتخبت له ـ وصيانة لأبنائها منه ـ تلك المرأة الطاهرة الطيبة، أمامة لأنها ترى أنها خير من يكون لعلي بعد رحيلها سلام الله عليها.

نعم.. ما أن هبت رياح الفتن عاصفة لتقتلع زهرة الزهراء الصديقة، حتى ذبلت تلك الوردة المحمدية اليانعة، وهاهي ترقد على فراش منيتها مغادرة هذه الدنيا بعين دامعة على فراق زوجها وأبنائها وأخرى ضاحكة للحاقها بأبيها النبي، هل رأيت يوما كيف يجتمع الحزن والفرح في وقت واحد؟ هل جربت هذا الشعور الصعب على النفس؟

طلبت من علي عليه السلام الحضور لتوصي له بوصاياها فلما حضر قالت له: يا ابن عم انه قد نعيت إلي نفسي وإنني لأرى ما بي لا أشك إلا أنني لاحقة بأبي وأنا أوصيك بأشياء في قلبي، قال لها علي عليه السلام: أوصي بما أحببت يا بنت رسول الله، فجلس عند رأسها وأخرج من كان في البيت.

ثم قالت: يا ابن عم ما عهدتني كاذبة ولا خائنة ولا خالفتك منذ عاشرتك؟ فقال عليه السلام: معاذ الله أنت اعلم بالله وأبر وأتقى وأكرم وأشد خوفا من الله من أوبخك غدا بمخالفتي عزّ علي مفارقتك وفقدك، إلا انه أمر لا بد منه والله جدد علي مصيبة رسول الله صلى الله عليه وآله وقد عظمت وفاتك وفقدك، فإنا لله وإنا إليه راجعون من مصيبة ما أفجعها وآلمها وأمضها وأحزنها، هذه والله مصيبة لا عزاء عنها ورزية لا خلف لها، ثم بكيا جميعا ساعة واحدة، وأخذ عليه السلام رأسها وضمها إلى صدره، ثم قال: أوصني بما شئت فانك تجديني وفيا كلما أمرتني به واختار أمرك إلى أمري.

ثم قالت: جزاك الله عني خير الجزاء، يا ابن عم أوصيك أولا أن تتزوج بابنة أختي أمامة، فإنها تكون لولدي مثلي، فان الرجال لا بد لهم من النساء، وان تتخذ لي نعشا، فقد رأيت الملائكة تصوروا صورته؟ فقال: صفيه لي؟ فوصفته فأتخذه لها ثم قالت: وأوصيك أن لا يشهد احد من هؤلاء الذين ظلموني واخذوا حقي فإنهم أعدائي وأعداء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا تترك أن يصلي علي احد منهم ولا من أتباعهم، وادفني في الليل إذا هدئت العيون ونامت الأبصار[1].

وغابت الزهرة الزهراء في جوف الثرى، فما أقبح الغبراء!

كان علي عليه السلام يجد عزاءه في إنفاذ وصية فاطمة، فتزوج أمامه بنت أبي العاص، الذي رأى نعمة كبرى في مصاهرة إمامه وصي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقد كان أبو العاص في ركاب علي عليه السلام منذ اسلم وذهب معه إلى اليمن، وها هو اليوم في بيته معتصما معه مع النفر القليل الذين أصروا على أحقية الإمام بالخلافة تبعا لوصية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

تزوج الإمام أمامة، وكانت كما توقعت الزهراء عليها السلام، تلك المرأة المناسبة التي رعت أبناءه رعاية الأم الحقيقية، وما أحوج الأبناء في تلك السن المبكرة إلى (زوجة والد) تكون أما ثانية حانية. وأمامة في هذا تعطي نموذجا للنساء اللاتي يخلفن الأم الحقيقية..

ولو نظرنا إلى الواقع وما فيه من مشاكل تتبع الحالة السابقة لرأينا عظمة هذا الدور فإننا نلحظ أنه يحدث أن تتوفى الأم في مراحل مختلفة من العمر، وهنا إما أن يضطر الأولاد ـ خصوصا البنات ـ أباهم لئلا يتزوج، تبعا لما يسمعون من مشاكل بين زوجة الأب والأولاد.. وهذه مشكلة بالنسبة للوالد فـ «إن الرجال لا بد لهم

---

(١) الأنوار العلوية / الشيخ جعفر النقدي

من النساء» كما في وصية الزهراء، وإما أن يتقدم الرجل لزوجة ما وتريد هذه أن تستأثر بالبيت ورب البيت فلا تراعي للزوجة الراحلة حرمة وتظل في شجار وشقاق مع الأولاد، بل في اضطهاد كما تتحدث عن ذلك الكثير من الدراسات الاجتماعية.

لكن أمامة بسعة خلقها وعظمة نفسها أسعدت الوالد، ولم تنسِ الأولاد أمهم وكانت كما قالت الزهراء «فإنها تكون لولدي مثلي»

بقيت مع أمير المؤمنين في هناء وهدوء، ومرت كما رياح الصبا لا كما نرى في بعض الزوجات، تمر عاصفة في صخب وتثير الغبار الذي يملأ العيون، وتصبح حديث المجالس بين مؤيد ومعارض. وأنجبت له على أقوى الروايتين محمدا الأوسط[1].

شاركت أمامة عليا حلو الحياة ومرها، وما أكثر الأخير عند علي عليه السلام، إلى أن «فاز ورب الكعبة» في بيت الله ساجدا ومضى شهيدا.. بينما مضت بغصتها وألمها الأمر الذي لاحظته أم الهيثم النخعية وهي ترثي أمير المؤمنين عليه السلام:

أشاب ذوائبي وأذل ركني	أمامةُ حين فارقت القرينا
تطيف به لحاجتها إليه	فلما استيأست رفعت رنينا

وكما عرفت الزهراء فضل أمامة فأوصت عليا بهذا الدر الثمين، فقد عرف الإمام من فضلها بعشرتها الشيء الكثير لذلك كان عسيرا عليه أن يباع هذا الدُّر بعده على فحام فيضيعه، لذلك أوصاها بمن تتزوج فإنه لما حضرته الوفاة قال لأمامة بنت العاص إني لا آمن أن يخطبك هذا الطاغية بعد موتي يعني معاوية فإن كان لك في الرجال

(١) المصدر السابق وقيل إن محمدا قد قتل مع أخيه السبط في كربلاء

حاجة فقد رضيت لك المغيرة بن نوفل عشيرا.

فلما انقضت عدها كتب معاوية إلى مروان يأمره أن يخطبها عليه وبذل لها مائة ألف دينار فأرسلت إلى المغيرة إن هذا قد أرسل يخطبني فإن كان لك بنا حاجة فأقبل فخطبها إلى الحسن فزوجها منه.

تماما كما اختارت الزهراء لعلي أمامة، اختار لها الإمام عليه السلام العشيرَ الصالح وفي هذا تعليم للمسلمين أن يتعاملوا مع الزواج بكثير من الواقعية الإسلامية، فنحن نرى مشكلة في هذه الجهة.. المرأة لا تتزوج بعد الزوج الأول لخوفها من مقالة الناس أنها كذا وكذا، مع حاجتها الداخلية الحقيقية للزواج.. ولكنها تلعق جراحها وتضطر أن لا تفعل مخافة النبز واللمز. وأخرى لا يتدخل أحد في أمر الزواج لأن الجو الاجتماعي لا يساعد على الخوض في هذا الأمر من قبل النساء لأنه (عيب)!! فتقبل بالموجود لأنها لا تستطيع النقاش في أمر نفسها!

لهذا قدم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، ومن قبله الزهراء نموذجا طيبا في التعامل مع هذه القضية. انتخبت له الزهراءُ أمامةَ، وانتخب لأمامة المغيرةُ بن نوفل.

والمغيرة رجل من أصحاب أهل البيت والسائرين على خط الأئمة، وهو إضافة إلى علمه حيث كان قاضيا زمن عثمان، وشارك عليا في حرب صفين، وهو الذي قبض على عبد الرحمن بن ملجم المرادي بعدما اغتال أمير المؤمنين في المسجد، فلما هم الناس به حمل عليهم بسيفه ففر جواله فتلقاه المغيرة بقطيفة فرماها عليه واحتمله وضرب به الأرض وقعد على صدره وانتزع سيفه منه وكان أيدا شديدا.

ثم إنه كان الخليفة على الكوفة من قبل الإمام الحسن عليه السلام لما عزم على حرب معاوية، فولاه إياها وأمره بأن يستحث الناس

ويعبأهم لقتال معاوية، ويرسلهم إليه في النخيلة.

كان اختيار الإمام لأمامة إمام الاختيار. وبقيت مع المغيرة وولدت له يحيى..ومع هذه الميزات التي كانت للمغيرة إلا أنه يستفاد من بعض الروايات أن جودها وسخاءها كان أكثر منه، ولا يمتنع ذلك.. فقد نقل أنها عندما حضرتها الوفاة في أيام معاوية بن أبي سفيان اعتقل لسانها فلم تستطع أن تتكلم، وأرادت أن توصي بالعتق والعطاء فدعت إمامها الحسن والحسين عليهما السلام، كما نقل في الوسائل:

عن محمد بن الحسن باسناده عن أحمد بن محمد عن ابن أبي عمير عن حماد عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام أن أباه حدثه: إن أمامة بنت أبي العاص بن ربيع وأمها زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وآله فتزوجها بعد علي عليه السلام المغيرة بن نوفل أنها وجعت وجعا شديدا حتى اعتقل لسانها فأتاها الحسن والحسين عليهما السلام وهي لا تستطيع الكلام فجعلا يقولان ـ والمغيرة كاره لما يقولان ـ: أعتقت فلانا وأهله؟ فتشير برأسها: أن نعم، وكذا وكذا، فتشير برأسها: نعم، أم لا، قلت: فأجازا ذلك لها؟ قال: نعم[1].

وقد تسبق المرأة زوجها في ميدان الانفاق وفي غيره، والغريب هنا أن بعض الأزواج يجبرون ـ من غير حق ـ زوجاتهم في الأمور المالية بينما جعل الإسلام لهن حرية التصرف في مالهن الشخصي، ولم يجعل للزوج ولاية على الزوجة في هذه الجهات. فقد رأينا من هذه الممارسات غير الشرعية أمثلة، كأن يمنع!! الزوج زوجته من العطاء، أو من أداء الحقوق الشرعية، أو يجبرها على تحويل راتبها أو

---

(١) وسائل الشيعة ط أهل البيت ج ٢٣ والرواية صحيحة.. وقد استفاد علماؤنا منها كفاية الإشارة المفهمة عند العجز عن النطق في العتق بل في غيره من العقود اللازمة والإيقاعات

ميراثها إلى حسابه مع أن الله يقول إنما يجوز أن يأكل الزوج إذا طابت نفس زوجته بذلك لا فيما أجبرها عليه فعن محمد بن يعقوب، عن عدة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد، عن الحسين بن سعيد، عن عثمان بن عيسى، عن سعيد بن يسار قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: جعلت فداك امرأة دفعت إلى زوجها مالا من مالها ليعمل به، وقالت له حين دفعته إليه انفق منه، فان حدث بك حدث فما أنفقت منه حلالا طيبا، وإن حدث بي حدث فما أنفقت منه فهو حلال طيب، فقال: أعد علي يا سعيد المسألة، فلما ذهبت أعيد المسألة عرض فيها صاحبها وكان معي حاضرا فأعاد عليه مثل ذلك، فلما فرغ أشار بإصبعه إلى صاحب المسألة، فقال: يا هذا إن كنت تعلم أنها قد أقضت بذلك إليك فيما بينك وبينها وبين الله فحلال طيب، ثلاث مرات، ثم قال: يقول الله جل اسمه في كتابه: فان طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا[1].

لقد ضربت السيدة أمامة مثلا للمرأة المسلمة أنها لها الحق في التصرف في أموالها ما دامت فيها بقية حياة، وأنه ليس للزوج أن يتحكم في طريقة إنفاقها ما دامت ضمن الإطار الشرعي.

(١) وسائل الشيعة ط آل البيت ج ١٧

المصادر

١. القرآن الكريم.

٢. ابن أبي الحديد: عبد الحميد، شرح نهج البلاغة، دار الكتب العربية، القاهرة.

٣. ابن قتيبية، الإمامة والسياسة.

٤. البحراني: عبدالله، عوالم العلوم، مدرسة الإمام المهدي، قم.

٥. الحر العاملي: محمد بن الحسن، وسائل الشيعة، مؤسسة آل البيت لأحياء التراث، بيروت.

٦. الريشهري: محمدي، ميزان الحكمة، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ، مكتب الإعلام الإسلامي، قم.

٧. الطبري: محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، مؤسسة الأعلمي، بيروت.

٨. المامقاني: عبدالله، تنقيح المقال، المكتبة المرتضوية، النجف.

٩. المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ، مؤسسة الوفاء، بيروت.

١٠. الموسوي: الشريف الرضي، نهج البلاغة، تحقيق الدكتور صبحي الصالح، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

المحتويات

للمؤلف

١. طلب العلم فريضة
٢. الهجرة مستقبل أفضل
٣. حجر بن عدي الثائر الشهيد
٤. مفهوم التقية في الإسلام
٥. عن الجهاد والثورة عند أهل البيت
٦. بناء القادة في منهج أهل البيت
٧. الحياة الشخصية عند أهل البيت
٨. نظام الإدارة الدينية عند الشيعة الإمامية
٩. التشكيك.. كيف واجهه أهل البيت
١٠. رجال حول أهل البيت (جزءان)
١١. نساء حول أهل البيت
١٢. من قضايا النهضة الحسينية (١ـ ٣)

لاقتراحاتكم وآرائكم يمكن الاتصال بالمؤلف
www.al-saif.net
fawzialsaif@hotmail.com